ليت الشباب يعود

ذاتيتان في شخص واحد

تأليف

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٥٠

تقدمة

هذا الرجل المزدوج

هذا رجلٌ متمتع بعمرين في زمنين متعاقبين . وعاش بشخصيتين متناوبتين في حياتين متبادلتين . تقلب في أولاهما بين الحظوظ والخيبات الى أن قارب الكهولة . فتمنى أن يجدد الحياة لكي يصلّح الغلطات فاستجيب تمنّيه . وعاد يستأنف الحياة الثانية من جديد من أول الصبى . فاكانت الحياة الثانية بأصح من الأولى ، ولا أقل منها أغلاطاً . لماذا ؟

اختبر القضاء والقدر ، والحرية والاختيار ، وحار بين الحظ والسعي ، وتردد بين الخير والشر ، وتحيّر بين الثواب والعقاب ، وتعلل بين الغنى والفقر ، وشهد الحرب بين إلّه المال وإلّه الخير .

وبقي في الحياتين لا يدري هل هو مسيَّر أم مخيَّر ، ضاع بين الجبرية والقدرية[1] . فأفش ونوقش فيهما فما استقرّ يقينه على الراجحة منهما .

في هذا الكتاب دراسة فلسفية في هذه المواضيع التي لا يزال البشر يتجادلون فيها منذ بدء الخليقة الى اليوم .

بقلم المؤلف

---

(1) الجبرية فرقة من الفرق الاسلامية قالوا لا قدرة للعبد أصلاً ، لامؤثرة ولا كاسبة ، بل هي بمنزلة الجمادات في ما يوجد منه . والقدرية هم الجاحدو القدر والذين يقولون أن كل عبد خالق لفعله ، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى

ليت الشباب يعود

الفصل الاول

الوسيط

قال الراوي : —

في ذات يوم كانت لي مشكلة في دار البريد في القاهرة . وكان الموظف نعيم النعماني يعالج مشكلتي ، وقد توسمت فيه الإخلاص والعدالة في حل المشكلة ، فشكرت له أمانته وطيبة قلبه من كل عواطفي . ولما علم إني أشتغل بتجارة الواردات السورية طلب مني صفيحة من زيت الزيتون التي . وفي اليوم التالي أرسلت اليه الصفيحة حسب العنوان الذي أعطانيه .

وما هي إلا بضعة أيام حتى فاجأني السيد نعيم في نيويارك حيث اعتدت ان أتحي مساء من عناء العمل اليومي وعاتبني قائلاً : أهكذا يا عزيزي يوسف ترسل صفيحة الزيت ولا ترسل معها « فاتورة » بالثمن ؟

قلت : الحمد لله ان ذنبي يقف عند هذا الاهمال المقصود ، لأني قدمت الصفيحة هدية ، فأرجو ألاّ ترفض الهدية .

فكاد يستشيط وقال : بل أردها غداً . وفهمت أنه لن يقبلها هدية . فقلت إذن آخذ ثمنها بلا ربح ، وعسى أن أستطيع خدمتك بأمر آخر .

وما لبثنا أن صرنا صديقين . وفيما نحن نتحدث بأمور لا طائل تحتها ، كأننا نقتل الوقت تحت لواء الصداقة ، ورد على لسانه ذكر بهيج بك رحمي ، فقلت : أتعرفه ؟

قال : اشتغلت معه برهة طويلة في دار البريد في الاسكندرية وأعرف أسرته جيداً . فهل تعرفه ؟

قلت أعرف عقيلته السيدة وديعة إذ كانت تصطاف مع أهلها في بلدتنا في لبنان ، وهي سيدة فاضلة لطيفة .

قال : وبهيج بك رجل فاضل أيضاً وله منصب كبير في مصلحة البريد . إذاً تعرف أهل السيدة وديعة أيضاً . وتعرف الآنسة فريدة .

فاختلج فؤادي بين ضلوعي كأنه كان ينفضها عنه فضغطتها عليه وقلت غاصًّا : نعم أعرفها . ألم تزل عند أختها ؟ كيف حالها يا ترى ؟

قال : أنها لآية في الأدب واللطف والذوق، فازداد انقباض قلبي وشعرت أن اليد نمياً محدثي يسمع نبضات دمي في عروقي فقلت : والجمال أيضاً . أليست جميلة، أليست منزلتها في الجمال كمنزلتها في الأدب واللطف والذوق .

قال : متوسطة في الجمال . لا تعد آية فيه

قلت في نفسي : ليت لهذا الغبي — لا أقول ليت له عيني لكي يرى . بل ليت له فؤادي لكي يحس بخفقاته . ثم قلت له: إذا كانت آية في الأدب واللطف والذوق ، فهي آية في الجمال أيضاً . ما هو الجمال ؟ أليس هذه الخصال ؟

ففهم لعمري ما في قلبي من وجد وقال : بلى حقيقة ، ولعلها جميلة ، لو لم تكن عليلة

قلت مضطرباً . ألم تزل عليلة . هي عادت الى الاسكندرية لكي تكون تحت رعاية طبيبها . أفلا استطاع طبيبها أن يشفيها ؟

فضحك الدمياني وقال : ان مرضها روحاني يا أستاذ يوسف . لا يستطيع أعظم طبيب أن يشفيها حتى ولا طبيبها لأن داءها جاء عن يد طبيبها

فبغت وقلت : كيف ذلك ؟

قال ان ذلك الطبيب خطبها وهي في أحسن صحة عقلية وجسدية . وبقي يتردد على بيت بهيج بك شهراً ، وهم يطلبون إليه أن يقترن بها ، وهو يسوّف لاعذار منسوجة نسج الديباج ، ولكنها لا تستر جسماً ، فكانوا يصبرون . وفي ليلة وضحاها انقطع الدكتور عن زيارتهم وافتقدوه فلم يجدوه . وبحثوا عنه فقيل لهم أنه باع عيادته ورحل الى نيويورك حيث له أخوة هناك موفقون وهو لم يكن موفقاً في الاسكندرية . مضى ومضت أشهر وهو لم يكتب لهم كلمة . فانقطع أمل الفتاة وسقمت لفشلها في الحياة .

— إذاً كانت تحبه حباً جماً إذ فقدته

— لا أظن أن سبب فشلها فقد هذا الخطيب بل فقد حبيب آخر ، فقدته بسبب هذا الطبيب .

قلت : هذا غير معقول .

قال إلى هنا لم أعد أعرف مزيداً . واعلم هناك رواية أخرى شبه سرية .

قلت مجفلاً : ماذا ؟

— يقال أنه تكفل عليها وفي اليوم التالي هجرها وسافر بلا وداع . ولكني لا أظن أن هذه الحكاية صحيحة .

قلت : ألا تزال في الاسكندرية . أما عادت الى أهلها في بيروت ؟

قال : لا أظنها تعود . لأن أخاها فريداً جاء الى الاسكندرية وأسس محلاً للصياغة وتجارة المصوغات والساعات . وأظن أن أبويه سيتبعانه قريباً .

* * *

عدت في تلك الليلة الى منزلي أحمل على

منكبي أحمال ذكرياتي السابقة الثقيلة .

بعد أيام ممدودة كنت حسب عادتي جالساً في نيويورك أستعرض ذكرياتي الماضية فأرى حلوها مرًّا وجميلها قاتماً، وإذ فاجأني صديقي البريدي نعيم النعماني وفي محياه أمائر بشر، فحيانا تحيات الأوفياء الأوفياء وقال : هل تعلم أن عقيلة بيج بك رحمي هنا في القاهرة الآن ؟

قلت . أجل علمت أمس اذ شرفتني بزيارة في محل تجارتي . ثم تغدينا معاً في مطعم الحاني .

قال باسماً : عسى أن أخبارها كانت سارة لك .

قلت : لا بدَّ أنك أعرف بأخبارها مني وبينك وبين أسرتها صداقة قديمة حميمة .

قال : أجل لقد عرفت منها كل شيء يهمك ويسرك .

قلت : ما ذا عرفت ؟

قال : عرفتُ ما كتمتَه عني في اجتماعنا السابق اذ لم يكن من داعٍ للتنويه به .

قلت : ما ذا ؟ ما هو ؟

قال عرفت ما كان بينك وبين أسرة السيد خليل منسي المحامي أبي فريدة من صداقة، وما كان بينك وبين ابنته من حب وخطوبة

فانقبض قلبي حتى شعرت أنه ينضغط بين ضلوعي . فتجلدت وقلت : وبالطبع عرفت كيف فسخت الخطوبة بسبب دخول ثالث بيننا هو الطبيب الذي

ذكرت لي حكايته في اجتماعنا السابق

قال : إذ ما روي لي وَرَوَيته لك عن تدخُّل الطبيب لم يكن صحيحاً . نعم كان الطبيب يحب نفسه بزواج فريدة ولكنهم لم يمنّوه بها فلما ضاق ذرعاً رحل الى أميركا

فضحكت وقلت : بالطبع لا يحسن بهم أن يقولوا الآن إلاّ هكذا

قال : ثق يا عزيزي يوسف انه لم يعقد زواج الدكتور بتاتاً ، ولك أن تتحقق ذلك من سجل الزواج . فلك أن تعتبر أن ذلك الطبيب لم يدخل بينك وبين آل منسّى وان خطوبتك لا تزال قائمة .

قلت : أرى يا عزيزي أنك موفَدٌ من قبل السيدة وديعة أخت فريدة لأجل وصل ما انقطع ، فلا تؤاخذني اذا قلت لك أنك لست أبرع منها بوصل المنقطع . لأنك لا تعرف كيف ابتدأت صلتي بفريدة وكيف انتهت . ولعلّ وديعة نفسها وأبويها لا يعرفون أيضاً . ولو كنت تعرف فنعلك لا تكلف نفسك عناء السعي المشكور في هذا العمل المبرور

فقال : حقًّا إني لا أعرف ولا أدري إن كان ما روي لي كان الواقع بعينه .

قلت : إذن فلا بأس أن نسمع الحكاية بحذافيرها لكي تعلم ان كنت تصلح قاضياً في هذه المسألة أو وسيطاً كرهاً . ليس في الحكاية ما يجب أن يكون سرًّا مكتوماً عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء . فاعرف .

الفصل الثاني

برعمة الحب

وشرعت أروي له حكايتي : —

في السادسة عشرة من العمر تبتدئ برعمة الحب تفتق الكم لكي تتفتح الزهرة، ولذلك كان قلبي حائماً كالنحلة على زهرات الفتيات ، لا يلبث أن يستقر على زهرة حتى يفر عنها الى أخرى طامعاً بحلاوة أشد . وكان في جيرتنا فتاة تدعى سلمى بنت حليم الزعفراني . وكانت أكثر اعتراضاً في سبيل حياتي من سائر فتيات الحي، فكنت أظن اني أحبها . ولكني كنت دائماً أتشوّف الى غيرها . أما هي فكانت على الرغم من حشمتها وتسوّرها لا تستطيع أن تكتم حبها لي

منذ تلك السنة جعل أبي يصطحبني معه الى مصر لكي يدرّبني على تجارته . وهي تجارة الحاصلات اللبنانية والسورية من زيت وزيتون وقراضين الخ، ويعرّفني السفر ومعالجة الشراء والبيع ويعرّفني « بالزباين » . ولما عدت من أول رحلة عدت مفتوناً بجمال من شاهدت في مصر من النساء من غير تخصيص . فلم تعد فتاة من فتيات البلدة تتصابى . كنت متقداً حبًّا ولكنه حبٌّ بلا حبيب . أين الحبيب . لا أدري . أية من رأيت من الفتيات كنت أهواها . ولكن إذا غابت عن بصري ذهب من قلبي هواها، وأقام فيه هوى آخر، حتى سلمى الزعفراني التي كانت أحبهن الى قلبي لا يمكث هواها يوماً واحداً في نفسي بل هو يتردد عليّ كتردد الربيع بين الفصول الأربعة .

كنت أحس أني عصفور طائرٌ من فنن الى فنن ، متنقل من دوحة الى دوحة ، كأنّ الأرض لا تسعني والجو ضاق بي والهواء يقذفني الى السماء . كنت أراني شيئاً ممتازاً في الوجود، ولكن ما هو هذا الشيء . لا أدري . كنت أظن أن العالم مخلوق لي ، لا أنا مخلوق له . فمن غرور الصبا الذي كان يتبختر في دماغي ويتطاير منه عجباً وخيلاء وزهواً .

في الصيف الثامن عشر من عمري كنت أشاهد كل يوم بعد يوم فوجاً من المصطافين في بلدتنا التي تعد من أجمل المصايف . وفي ذات يوم شاهدت أسرة قادمة الى المتنزه وهي أم وابن وابنة . فما وقع بصري على الفتاة حتى شعرت لأول مرة في حياتي بهزّة في بدني كله لم أعرفها من قبل . لا أكون قائلاً مجازاً اذا قلت انها هزّة كهربائية رجت بدني كله ووجف بها فؤادي في صدري

شعور لم يطرأ عليّ من قبل . فلم أفهمه ، أول مرة في حياتي هفا قلبي لامرأة على هذا النحو . وقمت عيناي على عينيها فلم أستطع أن استرد بصري إلا حين حدقت بي فأغمضته ، كأن في نظرتها قوة أطبقت أجفاني فأعرضت ومضيت متجاوزاً طريقها . ولكني ما لبثت أن تنهدت كأن قوة تردني لكي أرى ما في ذلك الهيكل الانساني من حبائل ربطتني به ، وجعلت تجذبني اليه ، بي نظري يشبع ذلك الهيكل حتى استقر الثلاثة في موضع حسن في المتنزه . فما رفعت قدماً الا كانت خطوة الى ذلك المقام على الرغم من تهيبي ذلك الاقنوم . ولما اقتربت الى المكان خفت أن تفر الظبية من تحتي في الارتداد لمواجهتها ، فحاولت أن أرجع ، ولكن قدميّ أصرّتا على الدنوّ الى مقربة من مجلسها . فجرأت نفسي وجلست لدى ذلك الثالوث المقدس .

أجل أحسست أن ذلك الاقنوم موطن الطهارة والقداسة والنعمة . ويحي ! أبنظرة واحدة تهب كل عاطفة فيّ . أين كانت هذه العاطفة الغريبة كامنة ؟ لم أعهد من قبل أن في الوجود ما يتقلقل جناني ، ويثير وجداني ، ويزلزل ما بين ضلوعي .

رأيت قبل ذلك الحين فتيات وسيدات كثيرات وعطفت وملت وهويت . ولكن كهذا الهوى لم أحس .

ألعلّ هذا ما يسمونه حبّاً أو عشقاً أو غراماً أو تدلهاً أو ولهاً أو شغفاً ؟ ان هذا انوله يوهن قوّة الارادة ، يضيع الاستقلال الشخصي ، يقتل الحرية . لذلك شعرت أني أصبحت ولا اختيار لي . رأيت أني غدوت مقيداً بذلك المكان ومرتبطاً بذلك الهيكل الروحاني .

بذلت جهدي ألاّ أخالسها البصر خافة تنورها . ولكن ما من مرة نظرت اليّ شزراً الاّ اصطادت مني نظرة على الرغم من تصلي الاعراض تحايداً لنفارها

ما عدنا من ذلك المتنزه إلاّ وقد تحدّثت العيون . أعلى تناهم أم على تجاهل ؟ لا أدري أعلى تلاؤم أم على تباين ! الله أعلم

تنبعت ذلك الثالوث الى أن توارى في داره حين كانت الدار نفسها تتوارى في حلك الليل .

رجعت من ذلك المعبد الذي اكتشفته مسائلة ، وكنت لا أراه قبل ذلك المساء إلاّ ساءة للقفران والجرذان اذ كان خالياً من السكان

وعلمت ليلتئذ من أمي أن ذلك المنزل ملك السيد خليل منسى الصائغ الذي يشتغل بفن الصياغة في بيروت ويتاجر بالمصوغات وان هذه الأسرة أسرته تصطاف كل صيف في ذلك البيت . وان اسم الفتاة فريدة وإسم أخيها فريد . أين كانت فريدة هذه ؟ لم أرها في صيف سابقاً . لعلّ برهتها لم تتفتق من زهرتها قبل ذلك الصيف

من تلك الليلة دبّ الهوى الأفلاطوني في فؤادي . منذ ذلك المساء اعتبرت أني دخلت في دور جديد من الحياة الروحية ، أو دخلت في دور جديد من العمر . منذ ذاك استيقظت في غريزة المطامح ، وتنبهت نعرات الآمال منذ ذاك . أدركت أني إنسان وان الإنسان مخلوق للجهاد ، وأن النشاط الذي يشعر به إنما هو أداة للجهاد

في تلك الليلة تعاظمت الآمال وتجسمت الأماني . ولكن الطريق إليها لا يزال مجهولاً . بيد إني اكتشفت أن فريدة هي الباب للدخول الى رحبة الأماني .

في تلك الليلة كان طيفها ماثلاً أمام مخيلتي واضحاً في حلك الليل ، حتى بعد أن أغفيت كان لا يزال يخطر في مخيلتي .

أتطلب يا عزيزي مني وصفاً لذلك الأقنوم الملائكي ؟ لا لزوم لذلك الوصف . . . ليس في الكون جمال كجمال ذلك الأقنوم في نظري ، فإن كنت في يده الخليقة أو في نهايتها فلا يرتسم في مخيلتي غير ذلك الجمال . هو الأول والآخر . وإن عبرت الكون من طرفه إلى طرفه الآخر فلا يروق لعيني غير ذلك الجمال .

إذا شئت أن ترسم جمال فريدة فانسخه عن مخيلتي . أنظر في حدقة عيني ترَه

ما هو الجمال ؟

هو خيال ينطبع في جرثومة الحياة فيجعلها روحاً .

هو شعاع ينعكس عن جوهر الروح فيجعلها حبًّا .

هو جوهر يقترن بالحب فيلد سحراً .

وما هو الحب ؟

هو نفحة تتغلغل في الجماد فتجعله كهرباء ، وفي النبات فتجعله إحساساً ، وفي الإنسان فتجعله شاعراً حساساً ، وفي النفس فتجعلها خالدة . والخلود المطلق للألوهية . والله محبة . والمحبة تربط أجزاء الكون وتمزجها جميعاً .

الحب يخلق الجمال ليتغذى به

الجمال وُجد . والحب وُجد . ولكن هل وسم هذا الحب قلب فريدة . قلت لنفسي حينئذٍ ان جواب هذا السؤال هو تخلك الشاغل يا يوسف منذ الغد

لله من الحب . يسهل الصعاب ويذلل العقبات . فما انقضى اليوم التالي حتى صرت وفريدٌ أخوها معرفتين بعد أن كنا نكرتين الواحد للآخر . وفي اليوم الثالث صرنا صديقين بعد أن كنا غريبين . وفي اليوم الرابع صرنا حميمين ونحن من سنٍّ واحدة تقريباً . وفريدة جاءت على رأس فريد بلغة المواليد . وصرنا نجتمع أكثر الأمساء في المنزه . وصارت لي جرأة على الحديث مع فريدة تارة ومع أمها أخرى . وصارت بيننا مودّة ظاهرة مبطنة بشغف خفي . وحين ينعقد اللسان تتخاطب العينان وتتناهم الروحان .

* * *

وكان يتردد على الأسرة في المتنزه شابٌّ كان في السنة الأخيرة في كلية الطب الأميركية في بيروت . وهو كثير الدعوى ثقيل العنجهية، مغرور بنفسه وجماله وخفة روحه ، وروحه أثقل من رضوى . ولم يكن يحلو له الكلام إلا باللغة الانكليزية التي كنت أجهلها أو لا أعرف منها إلا بعض الألفاظ . ومتى كان هذا الدعي موجوداً معنا يحتكر الحديث مع فريدة بهذه اللغة الأجنبية . فكان كأنه الذئب ينهش في أحشائي، أو المفرقعات ترجّ أعصابي ، أو قصف الرعود يقرع دماغي .

من ذا يقول أن الحسد رذيلة ؟ ومن لا يقول أن الغيرة فضيلة ؟ ومن يقول أن البغض إثم وانتقاد خطيئة ؟ إذا كنت لا أعرف سعادة في الحياة إلا بمجالسة فريدة ومغازلتها أفلا أغار إذا مقتّ ذلك الثقيل الذي يشاغلها عني ، وحقدت عليه ؟ أفلا أبغضه وأتمنى فناءه ، إذا كانت الدنيا تنازع بقاء ؟ — غفرانك اللهمّ

لما سمعت فريدة تكلم ذلك الثقيل بالانكليزية هبت في نفسي غريزة الغيرة . اشتهيت أن أعرف هذه اللغة لكي أفهم ماذا يقولان ، ولكي أكلم فريدة بها . آليت على نفسي أن أتعلمها ، واتفقت مع معلم المدرسة عندنا أن يعلمنيها، وشرعت أقضي معظم النهار في الدرس والتحصيل ، وقد صحّ في قول القائل « الحب ربّاني وعلّمني الأدب » .

ما انقضى الصيف حتى تفاهمنا فريدة وأنا فيما بيننا ، تفاهماً سريّاً بأنا حبيبان . وتعاهدنا على أن نكون زوجين متى حان الزمن المناسب وهو غير بعيد .

وعادت فريدة الى مدرستها وفريد الى مدرسته وأنا الى مدرسة غرامي وهيامي وصبابتي في يقظتي ومنامي . ولما كنت أعرف أصول اللغة العربية معرفة كافية، وكنت أطالع كتب الأدب والشعر جعلت أنظم الأشعار تشبيباً بفريدة

اكتشفت أن الاسترزاق في هذا العصر لا يسهل إلا بقدر ما للانسان من العلم والمعرفة ، وإن استيسار الأمور في بلادنا لا يكون إلا بمعرفة بعض اللغات الأجنبية. كأن الله الذي ضرب علينا الذل والمسكنة بسبب كسلنا وبلادتنا قضى بأن لا نحصل رزقنا من بين أيدي مستعمرينا إلا إذا خاطبناهم بلغاتهم . فما أمكننا أن نضطرهم أن يتعلموا لغتنا ولكنهم تكفلوا أن يضطرونا أن نتعلم لغاتهم . لذلك عزمت أن أستعد لدخول الكلية الأميركية في بيروت .

أرجو ألاّ تكون يا عزيزي نعيم قد ملّت سماع قصتي هذه التي لا تهمك .

فقال : كلا البتة . إني مستلذ سماع هذه القصة التي أرى فيها دروساً اجتماعية وأخلاقية، فاستمع الى حديثك بلهفة

فاستطردت وقلت : في تلك السنة

حدث حادثان خطيران في حياتي : الأول أن أبي توفي بحمى خبيثة — رحمة الله عليه — كان حصني وسلاحي ، فتركني في ارتباك وترك لي أمّاً وأخاً أصغر مني . لا بل وضعني أمانة في يد الله تعالى . لقد فعل لنا أكثر من الواجب علينا . فعلمني ما استطاع أن يعلمني ودرّبني بقدر ما أذن له اختباره . وترك لنا شيئاً من الأملاك العقارية لا يكفينا ريعه إلاّ إذا قنّرنا في المعيشة . ولماذا نقتّر وقد أورثني صحة وعقلاً وعضلاً ؟

أما الحادث الثاني فهو أن حليم الزعفراني أبا سلمى كان في الولايات المتحدة الأميركية من جملة المهاجرين المرزوقين ، فكتب الى زوجته يستقدمها إليه مع ابنته سلمى ، لأنه كان ناجحاً في تجارة المطاط هناك ، فصعب الفراق على سلمى جداً وشكت لي ألمه وقالت : هل يسهل عليك يا يوسف أن نفترق ؟ أما أنا فأذوب حسرة وأسى . لماذا لا نعقد زواجنا ونسير أني تسافر وحدها الى أبي ؟

ولم تكن سلمى تعلم ما ذا كانت منزلة فريدة الصائغ من فؤادي . فجعلت هي قلبي حلة استعطاف بدموعها حتى كانت تصهره شفقةً وعطفاً . فحاولت أن أعتذر لها بأني لست في ظروف تسمح لي بالزواج بعد أن مات أبي وتركني غير مستعد الاستعداد الكافي للارتزاق . ولذلك آليت على نفسي أن أتمم في الكلية (الجامعة) الأميركية في بيروت لكي أستعد لمستقبل أحسن .

واجتمعت بي مراراً لتقنعني بأسبابها وتستميلني بغرامها وتستعطفني بعبراتها . ولكن هناك صنماً آخر كنت أعبده . وقد استقرّ في هيكل قلبي وليس في مكنة سلمى ان تحطمه . ولما يئست سلمى من اقناعي قالت بلغة اليائس « ألا تذهب معنا لكي تودعنا في بيروت الوداع الأخير » .

قلت اذهب بلا شك . ولماذا تحسبينه الوداع الأخير ؟ من يدري ؟ فلعلنا نلتقي بعد حين .

والله يعلم إني كنت أمكر عليها لكي أخفف من لوعتها بتجديد الأمل . ولكني كنت أجترم جريمة بهذا التأميل لا مغفرة لها فأجهشت بالبكاء وقالت : « لا . لا . بل تشيعني في بيروت الى محطة القطار » . وارتمت على ذراعي . فقبلتها فاستطابت القبلة فاشتهت . وقالت : إذن أتظننا نلتقي بعد ؟

قلت موهماً كاذباً : قد أهاجر الى أميركا .

قالت : إذن سأستقبل الشمس والقمر كل يوم وكل ليلة على أمل أن تكون قادماً معهما .

* * *

وتوارت السفينة في الأفق .

تراءت لي سلمى ساعدة الى العلى لا مبارحة في البحر الخضم . وشعرت أني هبطت الى الدرك الأسفل لما انقطع حبل

الاتصال بينا . شعرت به هبوطاً رضّ هيكلي وسحق قلبي وأطار لبي ، وأفلت ضميري دجنٍ يقرعني قرعاً أعمى بصيرتي .

أما فلتات نفسي التي أخلصت الحب قدر ما يستطيع الانسان اخلاصاً وهل أثق أن تخلص فريدة هذا الاخلاص ؟ ذا البعد جفاء . بعد أسابيع تضاءل خيال سلمى في مخيلتي الى أن تلاشى — أجل تلاشى تجاه طيف فريدة .

* * *

انتهت سنتي المدرسية بنجاح تام .

ولما طلعت أسرة الصائغ الى مصيفها في بلدتنا كعادتها كانت معها السيدة وديعة أخت فريدة ، وعلمت أنها عقيلة صديقك بهيج بك رحمي الموظف في مصلحة البريد في الاسكندرية كما تعلم . وقد جاءت من القطر المصري في ذلك الحين لكي تصطاف مع أهلها .

عدنا نتردد الى المنزل المعهود . وعاد ذلك الطبيب الدخيل الى فضوله وتدخله في أحاديثنا وأسمارنا ، كأنه لا يجد جماعة غير جماعتنا تصلح لتسليته . وقد زاده حصوله على شهادة الطب في تلك السنة عنجهية وإعجاباً بنفسه . وهو لا يصبر الا أن يمتدح الخضار عنده بل هو ينهال بالاطناب بمهارته ووصف الامراض التي عالجها ، وفعل فيها العجائب ، حين أنه لم يمض الشهر بعد انتهائه من الدراسة . وإنما هو يعزو لنفسه غرائب الأعمال الطبية والجراحية منذ كان طالباً ، حتى إنه كان يتدارك أغلاط أساتذته . كاد غروره هذا يستثير زقي ، وأوشك فضوله ان يستفزني للقذع بسخفه ، وكان يوقد نيران غيظي ظني بأنه يضمر مطمعاً بيد فريدة . وكان يسمر حتى ما يتراءى لي أحياناً من مجاملة الاسرة له . وخفت أن يستميل حبه فريدة اليه . فجعلت نفسي تحدثني بدراسة الطب . ولكن هناك بضع سنين قبل أن أظفر بشهادة الطب ، فهل تمهلني فريدة هذه المدة .

انقضى الصيف وعدت الى الكلية وما لبثت أن لجمني حادث لا تطيقه نفسي ولا يهدأ بعده روعي وهو أن وديعة أخذت أختها فريدة معها الى الاسكندرية لكي تقضي شتاءً عندها . فكنت في ذلك العام في كمد وفي حسرة

وكنت قد أخذت منها عهداً بأن تكاتبني عن يد أخيها . فكتبت لها في أول شهر مرتين ثم مرة في كل من الشهرين التاليين فردت علي خطاب واحد ، وبعد ذلك لم تعد ترد بحجة اكتفائها بما تكتب لأخيها وتذكرني فيه وقبل أن ينتهي العام قاطعتني بتاتاً ولم تعد تذكرني في كتبها لأخيها على الرغم من عتابي الرقيق لها ، واستعطافي المتذلل في رسالة أخيرة أرسلتها اليها .

منذ ذلك الحين شعرت ان قلبها تغير عني . وكدت أذوب غماً . وصبرت على

هذا المصدر الى أن عادت في آخر الصيف وقضينا في الصيف حسب العادة وعادتها مرتاب العاشق الخائب . فأفضحت عما في نفسها وقالت بتطويل وتردد ما خلاصته : ان هناك سبباً صحيًّا وجيهاً يضطرها أن تنقض العهد الذي بيننا . فألححت في طلب بيان هذا السبب الصحي . فقالت بعد تردد: مرضت في الاسكندرية مرضاً خطراً هو التيفوس ، وطال عهده ، ولم أشف الشفاء التام حتى اليوم . ولذلك قال الطبيب ان الزواج خطر لي ، فرأيت ان الذمة والشرف يوجبان عليَّ أن لا أغشك ، لان زواجنا يكون وبالاً علينا كلينا .

فشكرت لها هذه الصراحة وقلت أعاهدك أني أبقى محبك وحدك الى أن يصرح الطبيب بزوال الخطر . فحاولت أن تقنعني أن معاهدة كهذه ليست حكمة من قبلي ، وان الأفضل أن نبقى حرين الى أن يقرر الله تعالى أمراً حسناً لكلينا .

وخطر لي أن يكون الطبيب الذي دخل بيننا عودتك الطبيب الفضولي المتقبل على الرغم من أنها سمت لي طبيباً آخر مشهوراً في الاسكندرية .

وانتهى الصيف وفريدة مريضة في مثل جفاء . وعرف أهلها ما كان من صرم حبل الحب بيننا وقطع العلاقة . وقبل أن يهجم الشتاء عادت فريدة الى الاسكندرية ضيفة على أختها مرة أخرى بدعوى أنها لا تستغني عن علاج طبيبها الذي درس مرضها

وآليت على نفسي أن أستمر بالدرس الى أن انتهي من دراسة الطب . قررت أن أكون يوماً دكتوراً ممتازاً طائر الصيت لكي تندم فريدة على تركي وتعود اليَّ . فانظر ماذا يفعل الحب . الحبّ كالايمان ينقل الجبل من مكان الى مكان .

* * *

لما انتهت السنة المدرسية حتى ضاق صدري . علمت أن فريدة لن تأتي في ذلك الصيف مع اختها للاصطياف . ورأيت أن سني الدراسة التي أمامي متطاولة تكاد حياتي تنقضي كمداً قبل أن تمضي السنون : حياة شوق وحياة وجد . وحياة جوى . وحياة غرام بلا لقاء . وحياة لوعة بلا ابتسامة حبية تطفئها . ثورة نفس لا تخمد . كيف تطاق حياة كهذه . ولماذا الحياة التي لا تطاق ؟ أما من فرج لهذا الكرب ؟

كان مورد الرزق الشحيح يقذفني من الدراسة الى العمل . لكي يقذفني من لبنان الى مصر حيث استأنف المسترزق الذي درَّبني عليه أبي . أحقيق أن الارتزاق كان يدفعني الى مصر ، أم ان مجيء فريدة كان يجذب مجيئي اليها ؟

لا . لا . لست من التضعة بحيث أنقاد بخيط جاذبية وهميّ الى فريدة . أذهب الى القاهرة فأكون في طريق الريح التي تحمل أنفاسها . ولكني لا أكون في مرمى بصرها

كلاً تعرض ... علي إذن فأكون في القاهرة . ويعرف أهلها أني هناك . وهي ستعرف أيضاً . ولعلك ترى أي الجرمين أقرى جدباً للآخر .

أقول لك الحق يا عزيزي نعيم . كانت تلك مكابرة كاذبة مني . ما برحت الى مصر إلا منقاداً بخيط حب فريدة الذي لا ينفصم

تأهبت في ذلك الصيف بشحنة من الحاصلات لرحلة الى القاهرة حيث يكثر زبائن أبي . وسافرت .

وعلى أثر وصولي الى القاهرة كتبت الى فريد مني السائغ أنبئه برحيلي ولعنواني بحجة الصداقة المتينة التي بيننا ، على أمل أن يرسل عنواني لاخته عسى أن تكتب لي . فرد ردّ موجزاً بعد حين ليبرأ من العتب . ومضى الشهر إثر الشهر وفريدة لم تكتب . فكتبت لها اخبرها إني في القاهرة . فما أجابت فعدت مقاطعتها لي . وحق يأسي وامتد أساي . وجعل جواي يقرض احشائي . وإذا عز الأمل فاذا يقوم مقامه غير اليأس . فأبى الله بالصبر

ورأيت إني اذا عدت الى بيتنا فقد يقصر النظر علي . ورأيت في مقامي القاهرة شيئاً من التسرية عن نفسي . فآثرت أن أبقى فيها . ولعل قربي من الاسكندرية سكنني فيها . كتبت الى أمين خان لي في بلدتنا ان يتبضع البضاعة ويشحنها لي لقاء عمولة . وأرسلت اليه المال الذي سمي لهذا الغرض . وجرت المعاملة بيننا بجري حسناً . واستقبت تجاري وشرعت تتسع رويداً رويداً وأنست منها نجاحاً .

وكانت نفسي تحدثني مراراً بأن أذهب الى الاسكندرية بزيارة لبيت بيت بك رحمي صهر فريدة . ولكن عزة النفس كانت تردعني ردعاً عنيفاً . ولا سيما لأني لست واثقاً أن يرحب آل رحمي بي . ولذلك حرمت على نفسي المشي الى الاسكندرية حتى لأي سبب آخر لئلا تظن فريدة اني أسعى اليها .

ولعلها نبذتني لبعد الشقة

الفصل الثالث

الحليل المنقطع

هذه يا عزيزي نعيم قصة صلتي بآل خليل منسي الصائغ وبالآنسة فريدة. وعندك باقيها وهو فاجعة لي كما علمت وكما رويت لي. أفليست فاجعة ومأساة يا أخي؟

وكان نعيم منصتاً لي كل الوقت يسمع ولا ينبس ببنت شفة الى أن قال: لماذا تحسبها مأساة وهي لم تنته بعد

قلت: انتهت. وأنت علمت كيف انتهت، وان كنت مفوضاً بأن تتوسط فيها فأرجو منك أن تستعفي من هذه المهمة. وقد حاولت السيدة وديمة أمس أن تعيد المياه الى مجاريها، فعادت وهي مقتنعة أن القناة التي تجري فيها المياه قد التوت ولم يعد ممكناً أن تستقيم

قال: ولكن فريدة قد اعتذلت . . .

فأجبت وأنا أكاد أغص بكلامي: لم يعد لي شأن بفريدة بعد أن صدق ظني بعلاقتها مع الطبيب الفضولي وهتكت كل عاطفة في

كذبت فريدة عليّ بمرضها. ضحكت عليّ باعتذارها، مكرت بي حبها. غشتني لطفها. لافقت عليّ نظراتها. خدعتني ابتساماتها. هزئت بي كعمل حيلها ودعج مقلتيها. سخرت مني دلالها. لعبت عليّ دوراً هائلاً بتكسر أعطافها، وبلاشة لسانها، وبحر أقاصيصها وتهذيبها، يوم ذاك لي متوردة الخدين خجلاً: ان بها داء الترف، وأنها لا تستحل أن تحملني همها عبء مرضها. فتذكرت لها حينئذٍ طهارة ضميرها وصراحتها، وأكدت لها أني مستعد لتحمل هذا العبء أصرت على الإباءة، وقالت لي صديقين.

يا لها من صداقة لم تتحمل شطط المكان فرسخاً ولا طي الزمان أمداً. تنوسيت في عام. ودفنت في حلك البالي، فلم يعد يعرف لها تاريخ ولا مقام

* * *

لطالما ألمت الى أن ذلك الطبيب الطفيلي سيأخذ من لبها فكرة. فكانت تهزأ بهذه الظنة ولطالما حذرتها من يلمية [1] ذلك الفضولي فقد تهوّر في خداعه. فكانت تتبرم من ذلك التحذير أو أنها كانت تستكف أن تحذر.

ها قد وقعت فيما حذرتها، وغفلت عما نبهتها. لماذا قالت حين شجرها ذلك الذل بلؤم، هل خطرت لها في بال، وتذكرت مني كل مقال: على أي حال ليس لفريدة عهد ولا وفاء. كانت تسبح حيث تطرفه بها الأهواء، لا قلب إلا كتلة لحم يتدفق فيها تيار دم منها وإليها.

لا صائغ إلا كتلة رمادية للمرء تتعاقب عن صفحاتها صور الخيالات بلا تسلسل

(١) اليلمي الذي يخلط الصدق بالكذب

ولا ارتباط كما تتعاقب الصور المتحركة.

ولا حواس إلا أجهزة أعصاب تنقل صور المحسوسات الى تلك الصفحات حيث تنطبع في طبقات الخيالات بعضها فوق بعض

إذن . أين مركز الحب في جسمانيا .

أين نبضة الوجد في وجدانها .

أين هبة الهوى في مشاعرها .

أين حرقة الجوى في أحشائها .

لا حب ولا وجد ولا هوى ولا جوى.

ليس هناك إلا شهوة مادية — تبرّج وتمويه ألوان وأزياء ونفاسة دمقس

ليس هناك إلا صنم قنيص ظاهره رس وأصم . فكيف يكون قلبه .

يا لضياع ذلك الحب — حبي — الذي كان كشعاع الشمس يضمر فريدة بحرارة الشوق على القرب والبعد سواء ، وبضياء الفكر الذي كان يلقي على صفحات الخيال صور حركاتها وسكناتها .

يا لضياع ذلك الغرام الذي كان هيكلها يسبح في بحر اثيره فأراه مثال الجمال الروحاني.

ويا لضياع ذلك الهيام الذي كان يطوف بي في الفضاء حتى إذا عثرت فيه على ملاك اقول هذا هو فريدة بعينها .

ويا لضياع تلك الأماني التي لاحت فيها أضباح السعادة السرمدية . ضاعت الحقائق فاضمحلت معها الخيالات والأوهام .

***

وكان نعيم يسمع رثائي هذا وتأبيني لحبي مدهوشاً لا يتكلم. ولعله لم يعد يدري ماذا يتكلم

فقال : اني يا أخي أعذرك وأنت الآن في منتهى الانفعال . غير أنك تلجأ الآن الى ملهى تمرّه فيه من نفسك ، عسى أن تنسى ذكرياتك الماضية التي كنت أنا السبب في استذكارها . فأرجو أن تعذرني وتؤذن لي أن أفارقك الى الغد في مثل هذا الوقت وفي هذا المكان .

ومضى . وعدت الى منزلي وأنا أحس همومي مطبقة على صدري تكاد تزهق روحي

تمزقت سحب الخيالات والأوهام وظهرت شمس ذكريات الحب الأول . الحبي طيف سلمى الزعفراني في مخيلتي كأنها لم تفارقني إلا اليوم . يالحسرات . يالهموم ! أين أنا من سلمى الآن وبيني وبينها بحر ومحيط . فأين لبنون آلة البحر يقلص الأوقيانوس لكي يضع القاهرة ونيويورك في صعيد واحد . انقطع حبل هذا الأمل منذ انقطع حبل الاتصال يوم الوداع . وكم كنت قاسياً يوم ورد لي خطاب من سلمى فلم أجاوبها عليه لأني حسبت المجاوبة خيانة في حب فريدة . لم أكن مقيداً بعهد لسلمى وانما كنت مقيداً بعهد لفريدة . أكذلك يكون جزاء الاخلاص

عفى أبي الصدق . فأضرني الصدق. لو كاتبت سلمى حينئذ لكان لي اليوم سبيل الى الاتصال بها اذ تيقظ حبي القديم لها .

هل أقول تبًّا للإخلاص ؟

الفصل الرابع

لغز الحب

في مساء اليوم التالي واتاني صديقي نعيم النعماني الى نيويورك في الميعاد. ولما جلس قلت : لعلك مرافقي لكي تعيد الكرة عليَّ مشفقاً .

قال باسماً : كلا البتة . لقد فارقتك أمس وأنا لا أرى وجهاً للشفاعة . وقد أزلتُ الستار على الموضوع منذ أمس كما أزلته أنت ، وانما وددت أن اطمئن على هدوء نفسك إذ فارقتك وأنت في ثورة نفسانية عنيفة جداً

قلت : أشكر لك عاطفتك الشريفة يا عزيزي. أنت أكثر خبرة مني. فهل يمكنك أن تقول لي كيف يمكن أن يرتد صدى الحب الشديد غشًّا وخيانة ؟ أو على الأقل فتوراً ثم انحرافاً ؟

فأطرق برهة غير وجيزة ثم رفع رأسه ونظر فيَّ قائلاً : يلوح لي يا صاحبي أنك تريد أن تطبق الحب على الهندسة — هندسة الفعل ورد الفعل

فضحكت وقلت : أليس الحب سنَّة طبيعية ؟ فيجب أن يمشي على السنن الطبيعية

قال — حسناً . وتتوقع أن يكون لكل حب صدى

قلت — نعم

— ماذا كان صدى حب سلمى بنت الزعفراني لك ؟

لو تقبض دماغي وصاصة حينئذٍ لما صرعته كما صرعت قلبي طعنة نعيم هذه . أحسست بدوار في رأسي كاد يعمي بصري. فوضعت رأسي بين كفي مطرقاً واستعرضت مخيلتي سلمى وأيامها ووداعها الأليم . وبعد برهة رفعت رأسي وقلت . حقاً ان حب سلمى لم يرتد مني صداه إليها . ولكن بين الحبين فارقاً . لم أعاهد سلمى . ولكن فريدة عاهدتني .

فضحك نعيم وقال : ليس في سنة الحب يا عزيزي كلام ولا عهود ولا مواثيق ولا عقود . وإنما فيه برق يومض ورعد يقصف وشهاب يلمع ونار تتقد . لا سلطان للسان على القلب . تحب من غير أن تتكلم . وتفهم الحب من غير أن تسمع صوته . تتكهرب بالحب من غير أن تلمسه . الحب أمواج روحانية بين قلب وقلب . تصدرها نبضات القلب الواحد فتصدم القلب الآخر فيتخافقان

قلت : حسناً ما بال قلب فريدة لم يحس بموجات نبضات قلبي .

قال — سل قلبك لماذا لم يحس بموجات نبضات قلب سلمى

قلت : عاد الآن يحس

قال : وعاد قلب فريدة يحس

قلت : « في الصيف ضيعت اللبن » الحب يا عزيزي ضربٌ من الجاذبية كتجاذب الأجرام السموية . والجرم الأكبر يجذب الجرم الأصغر . يتجاذب جرمان ، فاذا مرَّ جرم ثالث أكبر منهما على مقربة من أحدهما اجتذبه وخلف الآخر وحده شريداً . . . وقد كان بيني وبين فريدة جذبٌ قويٌّ . ولكن لما قرب ذلك الطيب الضخم بشبه اجتذب فريدة الى أن أصبحت بيننا مسافة بعيدة جداً . وقوَّة الجذب تضعف كمربع البعد ، فلم يعد في الإمكان أن نتجاذب . ولعل جرماً آخر أضخم من فريدة جمالاً أو مالاً أو كليهما مرَّ على مقربة من الطبيب فاجتذبه منها . فكذا الحب جاذبية بين متجاذبين

ففكر صديقي برهة مبتسماً ثم قال : ولماذا لا تقول أن جاذبية الحب ضربٌ من المغنطيسية يكون فيه معدنان مغنطيسيان متقابلين فيتجاذبان . فاذا تدابرا تنافرا . فاذا تقابلت أنت وفريدة تجاذبتما . وإذا بقيتما متدابرين بقيتما متنافرين .

قلت : ولكن إذا عاد المغنطيسان متباعدين جداً أضعف قوَّة الجذب كمربع البعد كما لا يخفى عليك .

قال : ولكن لا تنسَ أن للموجات الكهربائية تأثيراً عن بعدٍ سحيق . والقلوب النابضة موجات كهربائية كالموجات اللاسلكية تؤثر في قلوب أخرى فتجعلها تنبض مثلها كما يجاوب الراديو نبضات الاذاعة

ففكرت هنيهة ثم قلت : تكاد توقعني في حيرة . أتريد أن تقول لي ان القلوب لا تتنابض إلاَّ قلبٌ لقلب ؟

قال : نعم الحب نبضة من قلب لا ينبض لها إلاَّ قلب واحدٌ مثله . وأعني أن لكل قلبين لغةً خاصة ليست لغيرهما .

قلت عجباً ! أليس الحب غريزة شائعة في كل القلوب بلغة واحدة

قال : بلى الحب الحيواني غريزة كما تقول والإنسان والحيوان الأعجم فيه سواء . ولكن هذا الحب الذي يسميه البشر عشقاً أو وداً أو هياماً ، أو تدلُّهاً هو حب آخر علاوة على ذاك ، وإلاَّ لما كان عندك فرق بين سلمى وفريدة .

قلت إنك تطرحني في وهر من شعاب هذا الموضوع لا حدود له .

قال : أجل انه الموضوع لكذلك

قلت : أرجوك أن تتبسط في هذا الموضوع لكي تشفيني من وهدة هذه الحيرة ، ما هو الفرق بين الحبين .

قال : الحب الأول هو شهوة غريزية شائعة في جميع الأحياء يثيرها فيها النضوج . وفي الأحياء الراقية يثيرها أيضاً جمال الطبيعة . وكان كلما ارتقى الحيوان ارتقى معه الجمال ، فاشتدَّ به الحب حتى صار شوقاً فغراماً الى آخر ما تعلمه من تعابير الحب وأصنافه .

قلت : ما الفرق بين الحب الشهواني

البسيط والوله المتعاظم .

قال : ذاك مفصل الغريزة وهذا اختراع المخيلة . كلما ازددت حبًّا أو شغفاً سما تخيلك لجمال الحبيب . كنت تبغي وصالاً فأصبحت تطلب خيالاً . تكاد تغفل ذاك وتتشبث بهذا .

قلت : أمر غريب .

قال : أجل إنه لغريب ولهذا سُمِّي الهوى العذري . الهوى العذري هوىً غريب لا يعيش إلاَّ هنيهات التخيل فقط . متى كان الحبيب بعيد المنال تولى شأن حبه الخيال . يتمتع العاشق بصورة جمال المعشوق بدل تمتعه بذاتيته تقوم الصورة مقام الذات ما دامت الذات ممنوعة، فمتى حضرت الذات تبدَّد الهوى العذري مخاراً . وبرز الهوى الغريزي . فحريٌّ بذاك الهوى ان يسمى الهوى الفكري بدل الهوى العذري

فأطرقت مفكراً بحديثه مستغرباً فلسفته الى أن قلت : هل لك أن تقول لي الآن أين أنا من مراحل الحب هذه !

قال : لقد عبرتها كلها . وأنت تتنقل بينها كل يوم . تكون في حب غريزي فاذا بك انتقلت الى حب روحاني ، فالى هوى عذري . فكلما قرب الحبيب اليك كان حبك حيوانيًّا . وكلما بتعد عنك صار حبك روحانيًّا .

بعد تفكير هنيهة قلت : هناك جيلاتٌ عدة فلماذا يقيد العاشق قلبه بحب عذري واحد ، لا يروي غلة ولا يشفي علة .

قال : في نظر العاشق ليست الجيلات في طبقة واحدة من الجمال . فهو يطمح الى أجملهن في نظره، وكلما امتنعت عليه تعاظم جمالها في نفسه ، فيتعاظم حبها في قلبه حتى يصبح هوىً عذريًّا ، وحينئذٍ يكون أقوى سلطاناً من الحب الحيواني . ولكن هذا الهوى العذري لا يتسلط عبثاً بل يمنح الحب الجيواني قوة هي أضعاف قوته . ألا ترى ذلك في الفرق بين الحيوانات والبشر ؟

قلت : حقًّا ان الهوى الروحاني هو أقوى حب . أصبحت الآن أحب سلمى الزعفراني فوق كل حب وهي بعيدة عني ولا أعلم أين مقرها وماذا كان مصيرها . أصبحت أعبد طيفها ، أحب خيالها الذي يلوح في بالي، أتلذذ بذكرياتها الماضية . يا لله ما هذا الحب !

قال : وفريدة الآن أقرب اليك جدًّا وهي في منال يدك .

أجل : أما قلت ان الحب الروحاني أقوى من الحب الحيواني . لم تعد فريدة مركز حبي . لقد لعنت فريدة مني جدًّا بمكرها وخداعها . دعها للقضاء والقدر . وأنا مثلها للقضاء والقدر . كل منا في اتجاه خاص : مغنطيسان متدابران .

***

وافترقنا نعيم وأنا على هذا القرار .

الفصل الخامس

التعالب

بينما كنت في البنك أستصدر حوالة مالية تشرفت بالموظف القائم بالأمر إذ تلطف معي جداً. ورأيته بعد ذلك مر بالقهوة التي اعتدت الجلوس فيها فدعوته لفنجان قهوة. وصرنا بعد ذلك صديقين. وفي خلال حديث ذكرت له من سوء حالة المنزل الذي أنزل فيه مع إني أدفع أجرة حسنة. فقال لي: إذا شئت أن تسكن معنا فعندنا تلك غرفة منفردة مستوفية جميع وسائل الراحة. فسررت من هذا الاقتراح قبلته شاكراً.

في المنزل أبٌ مسنٌ يدعى صديق الكروي وزوجته وابنهما نسيم هذا وثلاث فتيات صغيرات. والظاهر أن السيد صديق تزوج متأخراً. فقد شاخ وأولاده لا يزالون صغاراً. وكان خياطاً. وقد قلّ عمله بسبب شيخوخته. ولذلك سُرَّت الأسرة بوجودي معها إذ أعطي شيئاً من عبء أجرة المنزل. وما لبثت أن أصبحت كواحد من الأسرة. واشتدت أواصر الصداقة بيني وبين نسيم وأهله.

وبعد حين من الزمن شعرت أن في البيت اضطراباً ولوائح غمٍّ ولمحات همٍّ، والسيدة عطية زوجة الشيخ صديق تذرف دموعاً. فسألتها: ما الخبر يا سيدتي

قالت: أزمة لا أدري كيف تنفرج

قلت: لكل أزمة منفرج. فما هي أزمتك؟

قالت: قرر الأطباء أن عند زوجي قرحة في فم المعدة، ولا علاج لها إلا العملية العاجلة أو التعبير، وليس عندنا الخمسون جنيهاً أجرة الجراح وكراء المستشفى

قلت: طيبي نفساً وقري عيناً. الخمسون موجودة.

قالت: ألف شكر يا عزيزي. ولكن يجب أن تفكر بوفاء هذا الدين أيضاً.

قلت: هذا أمر غير عاجل. العاجل هو العملية. ولكي يكون بالك مرتاحاً أتقاضى هذا الدين على مهل أقساطاً زهيدة كل شهر من أجرة سكناي معكم

فكانت الأسرة في سرور عظيم لتفريج هذه الأزمة. وبعد مدة القاهة عاد السيد صديق الكروي الى بيته سليماً معافىً شاكراً لله ولي.

وكان ثمت سرٌّ لا أفهمه وهو أن سليم العاني أخا السيدة عطية زوجة صديق تاجر أجواخ. وكان في امكانه أن يفرج غمة أخته وصهره. فلماذا لم يفعل؟ لم أجد تفسيراً لهذا السرّ الا ما علمته من أن لسليم على صهره ديناً من ثمن أجواخ لم

يستطع صديق إيفاءها ، فلم يرد أن يضيف ديناً الى دين لم يوف . والأنانية جنته من تأنيب الضمير .

على أن ديني لم يوف ، ولم أصر على استيفائه لأني رأيت أن مورد صديق ضئيل وماهية ابنه نسيم من البنك ليست كافية أيضاً لسد عجز نفقات الأسرة . فبقيت أتجنب ذكر الدين لكيلا تجرح عواطف الأسرة . وما زلت أدفع أجرة غرفتي .

***

وفي ذات يوم أعطيت نسيماً خمسين جنيهاً لكي يدفعها للبنك وديعة باسمي كالعادة ، لكيلا أضيع وقتاً في الذهاب الى البنك . وفي آخر الشهر ورد لي بيان البنك عن حسابي فيه وليس فيه ذكر للخمسين جنيهاً . فاستغربت الأمر ومضيت توًّا الى البنك وسألت عنها الموكل في الأمر فقال . لم يرد المبلغ للبنك من أحد قط . قلت إذن نسيم تصرف به ولم يقل لي . أظن أن الطريقة المثلى لاستيفاء هذا المبلغ منه أن ألتمس من البنك أن يستقطع من ماهية نسيم قسطاً كل شهر .

فقال الموظف : البنك لا يستقطع قرشاً من ماهيته لحسابك وإنما يقطع رجله من الدخول الى البنك . فألمح لك أن تسوي المسألة معه مباشرة من غير علم البنك لئلا تؤذيه ولا تنفع نفسك . وسأنصحه أنا أيضاً أن يتلافى الأذى لنفسه ولك .

لا تدع أحداً يعلم بشيء من هذا .

فقلت له أشكر لك نصحك لي وله . لا أريد أن يؤذى الفتى وهو بكاء بكرين وحده عماد البيت .

***

ورجعت الى السيدة عبلة أم نسيم ورويت لها تفاصيل ما كان . فكادت تجن من الأسف ، وشرعت تحاول أن تقبل يدي استغفاراً لابنها . فطيبت خاطرها .

ولما سئل نسيم عن سبب جريمته هذه قال إن عليه ديناً اضطر أن يوفيه على أمل أن يرجو مني أن أحسب المبلغ ديناً عليه ويكتب لي صكًّا به . وإنما كان يتحين الفرصة المناسبة لهذا الرجاء . فعذرته بعض العذر . ولكني لم آخذ منه صكًّا . وشعرت أني إذا أصررت على استيفاء المبلغ أرتكب جريمة ضد هذه الأسرة المكينة ، فمحوت المبلغ من ذاكرتي بتاتاً ... كأني مسؤول عن مظالم الزمن للناس أو جور القدر على البشر

علمني أبي أن أحسن معاملة الناس لأن حسن المعاملة شرط النجاح . ولكنه لم يعلمني أن أتجاوز حسن المعاملة الى التضحية . وها قد أحسنت بل تصدقت فجوزيت خساراً

لله من أحكام أدب النفس الخائبة

تحسن يساء اليك . إذن أسيء فيحسن اليك

والضمير ؟

المصير الذي ربما الوالداك ؟ من يستطيع أن يقول ؟

* * *

في ذات يوم بعد حين جاءني سليم الصافي أخو عبلة وخال نسيم الكروي وقال : أنت يا سيد يوسف شاب ذكي مثقف طيب القلب جداً كما نعرفك وكما يقول الناس عنك . فعلى م تضيع وقتك ومجهود شبابك في تجارة قليلة الربح وسخة متعبة ؟ اقترح عليك اقتراحاً نافعاً لك ولي . لقد اختبرت أنا تجارة الأجواخ . والربح فيها أضعاف أرباح البدالة (البقالة) . فاذا صفيت تجارتك وأضفت رأس مالك الى رأس مالي واشتغلنا معاً وجدت أرباحك مضاعفة .

وما زال يقنعني بهذه الشركة حتى اقتنعت واشتركنا .

وقد صدق حساب سليم ورأيت أن أرباحنا تتضاعف وسررت بحسن النتيجة . ولما ثقل الشغل علينا قال سليم : أظن أن ابن أختي نسيماً (الكروي) يفيدنا جداً اذا استخدمناه كاتباً حاسباً . وهو متقلق في البنك حيث أجره ضئيل . وفي الوقت نفسه يمكننا أن نستقطع من ماهيته الدين الذي لك عليه وعلى أبيه وقد طال عهده .

قلت لقد محوت ذلك الدين من دفتري ومن ذاكرتي . فلا تذكرني به . لا بأس أن نستخدم نسيم وندفع له ماهيته كاملة صحيحة لأن معظم عبء الأسرة واقع على كاهله .

* * *

مضى على شركتنا بضع سنين كانت ناجحة . ولكني كنت متمتعاً من شريكي سليم لأني كنت ألاحظ عليه تلاعبه أحياناً . وكان هو يتمتعض أيضاً من ملاحظاتي . ولما لم يعد يحتملها طلب الي أن نحل شركتنا . فأجبته الى طلبه .

واقتسمنا البضاعة وسوينا الموازنة باقتسام النقد والديون . وبقي له علي دين نقدي . واتفق في ذلك الحين أن تاجراً اشترى مني شروة بقيمة ١١٦ جنيهاً بالسيئة بصك (كمبيالة) . فكتب نسيم الصك حسب العادة ووقع عليه المدين . ثم حولت هذا الصك الى سليم الشريك المنفصل من قيمة ما بقي له من الدين علي . انفصلنا على وفاق وبقينا صديقين .

وما لبث نسيم أن انفصل عني وانحاز الى خاله .

ورام سليم أن يوسع تجارته فاشترى واستدان . وفي ذات يوم اقتص مني أنه أضعنه في دين بقيمة ألف وخمسمائة جنيه . فلم أتردد في ضمانته لأني لم أر في معاملته لي ما جعلني أوجس منه .

* * *

ولما استحقت الكمبيالة على ذلك المدين بقيمة ١١٦ جنيهاً فإذا البنك يطالبه بألف

ومائة وستة عشر جنيهاً (١١١٦) فإن الرجل لما رأى الكمبالة ناطقة بهذه القيمة وهو قد وقع عليها بقيمة ١١٦ فما كان منه إلا أن أبلغ النيابة حالاً بتهمة التزوير. وما كان من النيابة إلا أن قبضت عليّ. ولما استجوبني وكيل النيابة قلت أن المبلغ بقيمة ١١٦ جنيهاً فقط. ولا أدري كيف حصل التزوير. وأما سليم فادّعى أني حسبت الكمبالة عليه بقيمة ١١١٦ كما قبضها من البنك. وأظهر في دفاتره بيان الحساب الذي تسوّى بيننا وفيه قيد الكمبالة بهذه القيمة، فظهر للنيابة أن التزوير حدث عندي على الرغم من اعترافي بالمبلغ الحقيقي وإنكاري أني لم أسدد لسليم إلا ١١٦ جنيهاً فقط وأن الألف قد دُفعت بضاعة. وكان الخطأ مني إني وثقت بأمانة سليم واستقامته. ولم آخذ منه «مخالصة» بيننا تنص على ما أعطى وما أخذ.

فسلامة نيتي وثقتي بسليم زجّا بي في السجن.

وفيما كنت في السجن أساوم محامياً للدفاع عني كان سليم يسدد بضاعته ويهرّب ما له ويرتب دفاتره. ولما استحق الدين الآخر الذي ضمنته عليه لم يكن له ما يوفي فعاد الدائن إليّ.

وبواسطة دفاع المحامي خرجت من السجن بكفالة مالية ووجدت نفسي في حالة إفلاس. فقدمت دفاتري للمحكمة.

وأخيراً أثبت التحقيق أن الكمبالة المزورة كانت بخط نسيم ابن أخت سليم وان الألف التي أضيفت إليها كانت بخطه أيضاً. ولكن مع من تواطأ نسيم هذا؟ أمع خاله أم معي؟ بقي هذا سرّاً للقضاء. فحكم القاضي على نسيم بالجريمة وبرّأ خاله. وحكم عليّ بدفع المبلغ كله. ولولا اعترافي بالصدق أي أن أصل الكمبالة ١١٦ فقط وظهور حسن نيتي وبراءة ذمتي لبقيت في السجن بضع سنين.

هنا كان جزاء طيبتي وحسن نيتي وخدمتي للانسانية وعطفي على آل الكروي. فما أصدق القول «اتق شرّ من أحسنت إليه»

ولما نظر القاضي في قضية تفليستي وبُسطت له جميع ملابساتها ووجد أن ما عندي من المال والبضاعة يفي الدين الذي عليّ قال في حكمه: «لم أجد في مدة قاضويتي تفليسة أشرف من هذه التفليسة»

وخرجت من المحكمة وليس عندي من رأس المال غير هذه الشهادة الثمينة من القاضي العادل، وهي حسبي والله نعم الوكيل يوم الدين.

ولما حدثت هذه الخيانة خرجت من بيت الكروي مشفقاً على أولئك الصغيرات، واستأجرت منزلاً صغيراً ووضعت فيه الأثاث الضروري واستقلت في مكتبي

وبعد تصفية تجارتي وإيفاء المطلوب مني بحسب القانون بقي معي من النقد

زهيد أستعين به ريثما أتوفق الى تدبير آخر لمرتزقي .

* * *

لاح لي أن أبي كان مخطئاً يوم علمني أن الاحسان للناس خير سبيل الى السعادة، لأن فيه سلاماً للضمير، وسروراً للنفس ليس بعدهما سرور . وأنا لم أجد فيهما إلا خسراناً واساءة لي

وقد تعلمت من معاملة سليم الصافي وابن أخته نسيم الكروي أن الناس متى عثروا على شخص طيب القلب حي الضمير اكتشفوا لقطة يسهل عليهم استغلالها وهضمها بلا عناء . فالرجل الرجل هو الذي يشتم القرص ليكون هاضماً لا مهضوماً . وميت الضمير يلتهم الضمير الحي . والطالح حَلَمٌ يعيش على دم الصالح . والخبيث خطر يثبت على الثروة الشهية ليتغذى بها .

لماذا لا أكون حَلَماً أو خطراً فاستغل خيرغيري . ولكن كيف أستطيع أن أفعل وسيف الضمير مسلول فوق عنقي ؟

الفصل السادس

الانسان انصاري

بعد ان خرجت من المحكمة عكفت ساعة الى نوافذ فندق الكونتنتال حيث اعتدت أن أجلس في بعض الأحيان مع بعض الأصحاب لكأس من الشاي والقهوة، وجلست وحدي في زاوية بعيدة منها أحاسب نفسي عن ماضيّ.

عند ذلك جاءني صديق حميم هو الأستاذ صلاح عادل المدرس في كلية الحقوق وجلس معي وهنأني ببراءتي وعزاني بخسراني وعنى لو يستطيع أن يساعدني بشيء. فشكرت له عطفه وقلت: ناهزت الأربعين من العمر. ولكني كنت أحس أني مقارب الشيخوخة لأن النكبات التي مرّت بي منذ الصبا الى هذا الحين أهرمتني: اخفاق في الحب لم يخفه قيس ليلى.

خيبة في الصداقة لم يخبها يوسف الصديق في اخوته.

والخداع في أمانة الصحاب لم يخدعها المسيح في أمانة يهوذا.

أحببت مكل جوارحي فكونتُ بغباءة صادقت وصدقت فخُدعت
أحسنت فأُنيتُ.
وآسيت فأُلمت
تصدّقت فنُبهت.
عطفت فقسي عليّ.

ترى ماذا أسأت حتى كوفئت هذه المكافآت الرديئة؟

أجل كسرت قلب فتاة أحبتني وأحببتها في عهد الصبا تدعى سلمى الزعفراني، أيمكن أن تكون هذه النكبات عقاباً لي لأني خيبت أمل سلمى؟....

ولكني لم أعد سلمى أي وعد حتى أقول إني أخلفت لها وعداً أو نكثت لها بوعد.

هذا عالم لا يعيش فيه الصديق والأمين أو المخلص. ان الذين لقيتهم من التجار وغير التجار والأصدقاء لم أرَ واحداً منهم يؤاسيني في نكبتي، لئلا يضطروا أن يعرضوا عليّ مساعدة. ولعلّ كثيرين منهم ما زالوا يشمتون أني مرتكب جريمة التزوير، وإني ما نجوت إلاّ ببراعة المحامي. ولعلّ بعضهم كانوا يشمتون في أحاديثهم بتفاصيل قصتي ويزخرفونها بأباطيلهم.

وكان صديقي صلاح يسمع رثائي لنفسي مطرقاً من شدة تأثره واشفاقه عليّ. ولما سكت مشيحاً برفع نظره اليّ وقال: —

لقد روى لي الأستاذ حامي محاميك قصة تنبيهك، وهو آسف جداً للحيف الذي وقع عليك فثقتك لأكي أواسيك لأنك لم تخسر في قضيتك إلاّ المال. والمال في

منال يدك تحصله بقليل عناء . وإنما جئتك لكي أهنئك بالشرف الذي منحكه القضاء البشري . وما كانت شيمة القضاء البشري أن تمنح شرفاً لأحد . بل القضاء يحكم على المجرم بعقوبته ويتفضل على البريء بالاقرار ببراءته — قطعت الألسنة التي نطقت بذلك يا عزيزي، ما هي إلاَّ ألسنة الأفاعي تقطر سمًّا

فقلت : لم أرَ يا أخي إلاَّ ألسنة تقطر عسلاً . ولم أدر ان في العسل سمًّا إلاَّ اليوم . لأني كنت معوَّلاً على الآية الانسانية القائلة : « ظن بالناس خيراً الى أن يبدو لك منهم شرٌّ » .

فهزَّ رأسه وقال : أنا أنصح لك يا أخي أن تعكس هذه الآية التي تظنها انسانية وما هي إلاَّ شيطانية . ظنَّ بالناس شرًّا الى أن يثبت لك الخير منهم . إنك ترى نفسك على الأرض بين أناس من الانس تظنهم انسانيين وما هم بإنس انسانيين . ليس على الأرض إلاَّ فيالق من الجن الشياطين يعيشون في الأرض فساداً ، وأسراب من الملائكة الأبرار يفرّون من أمامهم الى الكهوف لتختبئهم والى الأدغال يستخفون فيها. وأما فوق الأرض فلا ملائكة ولا تحت الأرض أبالسة . وما الأبالسة إلاَّ هؤلاء الذين تراهم على سطح الأرض بشراً وما هم بشرٌ . ما زالوا كما نشأوا حيوانات تتنازع البقاء .

فقلت : إني أستغرب قولك هذا وأنا أعتقد ما علمته من أقوال الحكماء والكتاب أن تنازع البقاء الشائع بين البهم في المملكة الحيوانية تحوَّل الى تعاون وتكافل للبقاء والارتقاء في المملكة الانسانية . وبه تفوَّق الانسان على الحيوان

فقال ضاحكاً : أجل هذه سنة التطور التي تسمى أحياناً سنة الارتقاء . فلا يخفى عليك أن هذه السنة إنما تكون نقضاً للوجود ، بل يغلب أن تكون إضافة الى الموجود . إن للحشرة جهازاً عضميًّا ، وللزحافة جهازاً عضميًّا ، وللانسان هذا الجهاز أيضاً . ولكن الزحافة أضافت الى جهازها العضمي هيكلاً عظميًّا وجهازاً عصبيًّا، والانسان أضاف الى هذه الأجهزة كلها جهازاً دماغيًّا عقليًّا أيضاً . أعني انه لما ارتقى الانسان الى هذا الحد لم يتخلَّ عن جهاز الحشرة العضمي، ولا عن هيكل الزحافة العظمي، ولا عن جهاز البهيمة العصبي، بل أضاف الى كل هذه دماغاً يعقل .

وهكذا لما ارتقى الانسان لم يتخلَّ عن بطش الوحش الضاري، ولا عن فتك الذئب، ولا عن خبث الثعل ، ولا عن مكر الثعلب، ولا عن لؤم ابن آوى ، ولا عن خساسة الخنفسة، ورثاء الحرباء، ونفاق الرتيلاء، وغدر الهرة ، الى ما هنالك من رذائل الحيوانات. فهذا الحيوان الذي تسميه بشراً راقياً ، لم يغيِّر تطوره طباع حيوانيته بل لوَّنها بألوان البشرية ، وطلاها بطلاء الانسانية . تحت هذه الانسانية التي تغرك بجمالها وطهارتها،

تكمن طباع البهيمة الرذيلة ، حتى إذا نضج الطبع الحيواني برزت تلك الأخلاق الشريرة ، فلا تؤمن يا عزيزي لمحاسنة الناس ومجاملاتهم وودهم وكرمهم لأنهم مازالوا حيوانات ضواريّ .

فتعجبت من كلام صاحبي هذا وقلت : ولكنك يا عزيزي سهوت عن الاخلاق . الانسان ارتقى جداً عن الحيوان ، ليس بجهازه العصبي الدماغي العقلي فقط ، بل بأخلاق بنيت بها المدنية الحاضرة . فهل تستطيع أن تتصور مدنية بلا اخلاق . وما معنى التطور إذا لم يترقَّ البشر في الأخلاق والطباع ، كما ترقوا في الأبدان ، وتطوَّروا في الأدمغة ، وارتقوا الى أعلى عليين في العقول . ومن أين جاءت لهذا الانسان الذي لا نزال نحسبه حيواناً ضارياً ، أخلاق المحبة والرحمة والرفق والعدل والأنظمة السياسية والقضائية والقوانين الخ .

قال ضاحكاً : لقد فكرتني بأغرب نوع من أنواع المكر الانساني الذي يتفرَّد به الانسان على كل مكر حيواني . هذه القوانين التي تستحسنها ، هي أبلغ أنواع المكر . ما لزوم هذه القوانين التي يتبجح بها الانسان ، ويتعالى على الحيوان الأعجم إذا كانت الأخلاق قد ارتقت الى المحبة والرحمة والرفق والعدل . أليست هذه القوانين والمحاكم والقضاء والاحكام شهادة ناطقة صادقة على أن الانسان شرير الطبع لا يزال متخلقاً بأخلاق الثعلب المكار ، والصل الخبيث ، والحية الخبيثة ، والحرباء الخ الخ ، وقد زعم انه اخترع القضاء والقوانين لكي يتلافى هذه الشرور .

قلت : إذاً في خلق الانسان ميل الى تلافي الشرور ، ولذلك اخترع القضاء والقوانين لتلافيها .

فقهقه وقال : وهل تلافاها ؟ أم زادها شراً على شر ؟ هل ترى في القوانين انصافاً وفي القضاء عدالة ؟ هل أنصفت القوانين الضعفاء من الأقوياء ؟ . هل جعلت بؤس المعدم يقف ليصد بطر الثري ؟ ألا تحكم المحكمة عليك بالحبس إذا اختلست قرشاً وبغرامة قروش إذ جرحت شخصاً جرحاً بليغاً . كأن المال المسروق أعز جداً من البدن المجروح . وهل هذه القوانين فرَّقت للعدالة على الناس بالسواء ؟ أليس بين الناس تفاوت في التحتم بالعدالة ؟ فاذاً هذا القضاء وهذه القوانين لم تتلافَ شرور البشر ، ولم تكبح جماح الطباع الحيوانية التي لا تزال مصاحبتهم من عهد العهد الشرس ، والذئب الخاتك ، والثعلب الفهم ، والصل الخبيث الخ . الانسان يا صاحبي حيوان ضار طاقر ، وعقله رقَّى ضراوته ، وعظم خبثه ، ومكره ولؤمه ، وقوَّى بطشه وفتكه .

فقلت : كفاك يا صاحبي تجعلني أمقت هذا الانسان وأهرب منه . ولكن الى أين ؟

قال : تهرب الى الحذر والايجاس منه .

لا تظن أن ما نسميه تطوراً نسخ من هيكل الانسان صورة الحيوانية الشريرة، أو لنسف جوهر البهيمية المفترسة . بل بالأحرى تطورت فيه هذه الحيوانية أيضاً ، فتطور المكر الى نفاق، وتطورت الحيلة الى دهاء، وتطورت الشراسة الى فظاعة ، وتطورت القوة الى ظلم ، وتطور الميل الى جشع، والشوق الى نهم ، والحب الى شهوة . فما نسميه ارتقاء في الإنسان إنما هو ارتقاء في الحيوانية والبهيمية أيضاً، ارتقاء في الشراسة ارتقاء في التنكيل والتقطيع . أجل لا يزال هذا الإنسان حيواناً . فاعلم أنك تعامل حيوانات، نعم حيوانات تعامل . والحيوانات ضربان : ضواري وأنعام . وذئاب وأغنام . وأفاع وحمام . فان كنت غنمة كنت غنيمة للذئاب . أو حمامة كنت فريسة للثعالب والأفاعي ... لقد كنت يا عزيزي غزالاً نشيطاً سريع الجري . فلما غفلت انقضت عليك الأسود والذئاب وجعلت تهنك ، لا أقول لك كن ذئباً لكي تعيش وتشبع ، أو أسداً لكي تمتلك وتتخم ، وانما أقول لك ابق غزالاً نشيطاً لكن يقظاً . ولا بأس أن تكون حمامة وديعة . ولكن حاذر أن تغمض عينك عن الأفاعي والثعالب لئلا تسطو عليك فتفترسك .

لا تكن نعجة ساذجة، وإلا فالضواري لك بالمرصاد . وإنما كن جاموساً مستعداً للنطاح اذا سطت عليك الأسود والنمرة

إعلم يا عزيزي أن أولئك الضواري لا يقصدون الى الأفيال ذوات الخراطيم التي تصنع وتصرع ، ولا الى الجواميس ذوات القرون التي تقر البطون ، بل يقصدون الى الأغنام الصالحة ، والأنعام السائغة، لكي يفتكوا بها .

كلما ظهرت منك طيبة القلب أغرت هؤلاء الأشرار الخبثاء أن يحوموا حولك ليقتنصوك . فلا تبالغ في الطيبة . ولا تغالِ في التسامح لئلا تكون فريسة للطامعين الغاصبين . فإن تسامحك مع آل الكروي أطمع نسيبهم سليم الصافي أن يغدر بك .

لا تعتمد على القوانين في الحرص على نفسك ورزقك ، فهي أوراق صماء عمياء ، لا قوة لها بنفسها لكي تحميك . ولا تعتمد على منفذي القوانين ، فما هم إلا من طينة هؤلاء البشر الضواري الذين حذرتك منهم .

الفصل السابع

من عالم الغيب

وكنا قد جلسنا في الصف المشرف على الطريق في الكونتينتال كعادتنا نشاهد السابلة . وما هي إلا دقائق حتى ألفت نظرنا سيدة بزوت من باب الفندق العظيم ، يمكن أن نخاطب بلفظ « سموك » إذا لم نخاطب « صاحبة الجلالة » لم يشاهد في الشرق مثل ذلك السمو الارستوقراطي . وافت تتهادى بمحفتها السندسية الأنيقة كالطاووس في إبّان تنفشه . وفي أذنيها وعنقها وأصابعها من الجواهر ما يموّل مصرفاً (بنكاً) . وفي محجريها مقلتان تتدفقان أشعة تخترق الصدور وتبهر العيون ، وثغرها يومض بروقاً تخطف الأبصار

جلست على كرسي فخم أنيق كأنه معدٌّ خصيصاً لها . ثم أطافت نظرها في المكان ورمت ببصرها الى الميدان . واستوقف ناظريها جتمعنا ، ونحن مأخوذان بتلك الأبّهة السماوية لا نستطيع أن نرد بصرنا عنها ، كأنّ أشعة مقلتيها أسلاك ذهبية امتسكت بأحداقنا واعتقلتها . وأوسعتنا تحديقاً إذ لاحظت انبهارنا . وحملت قليلاً ، فارتدّت أبصارنا مقصورة

لم يمكننا أن نحكم في أية سنٍّ هي . فقد تكون كاعباً ، أو صبية ، أو في شرخ الشباب الناضج ، أو أول الكهولة .

بعد دقائق أقبلت عليها من باب الفندق فتاة أخرى لا ندري أملاك هي أم إنسٌ . سبحان من أبدع . ليس لقلم قدرة على وصف ذلك الجمال الروحاني . تقدمت إليها ووضعت كفها على كتفها وجعلت تكلمها همساً . ترى هل هما شقيقتان ؟ أم الثانية بنت الأولى ؟ الله أعلم .

هي دقيقة وإذا بسيارة ضخمة عظيمة القدر قد وقفت أمام سلم الفندق . فألفتت الأنظار واستوقفت المارّة للتفرّج عليها ، لأنه لم يوجد في مصر في ذلك الزمان سيارات إلا لسموّ أمير البلاد ، ولقليل من الأمراء والكبراء ، لأن اختراع السيارة كان ابن ذلك العهد . ومشت المرأتان الى السلم ، فتناول بيديهما حوذيان وأنزلاهما الى السيارة فصعدتا إليها واستوتا فيها شمسين في أفق واحد . وكان ذلك من شواذ الطبيعة . ودرجت السيارة تستوقف المارة الى أن توارت .

وبقينا نحن برهة نتحدث في ذلك الجلال البهيّ من أي ملكوت هي (أوهما) ؟ أإنكليزية ، أو أميركانية ، أم أفرنسية ... أي نوع انساني . رجح لنا أنهما أميركيتان ، لأن هذا الترف الباذخ نادرٌ في غير الأميركانيات الثريّات .

* * *

سألت في تلك الليلة نفسي وذلك الكوكب المتلألئ يتسابقان لا يبرحان من مخيلتي هل نبض حبٌّ جديد في قلبي ؟ هل تعشق الأرضُ الشمسَ ؟ لا بل تعبدها لأن لها منها الحياة .

أما تبتُّ عن الحب يا هذا ؟ هل أتعرَّض لخيبة أخرى في بقية الحياة ؟ وهل بقي من الحياة ما يسع حبًّا .

وكان حديث صديقي صلاح لا يزال يتردَّد في ضميري، حتى خُيِّل لي أن هذا العالم المسمى ملكوت الانسان ما هو إلاَّ مملكة الشيطان أو مستعمرته لو وقعت عظة صلاح في نفسي موقع القبلة في البيت لكنتها . شرعت نظريتي في البشر تتغير ، وفي العدالة تتعدَّل، وفي الأخلاق تتطوَّر .

آه . ليت الشباب يعود . لعلي أصلح أغلاطي، وأجدِّد كفاحي، وأربي به الى الفلاح، حسب عظة صلاح .

* * *

في اليوم التالي رأيتني ماضياً الى ديوان الكنتيننتال غير لا تقاوم . لا أدري من أي حيز نزلت عليَّ تلك الفكرة فساقتني رغم أنفي الى ذلك الفندق الكبير . لم أعد في حالة تسمح لي بالتمتع بلذة الحياة ، ما دام القلب مفعماً غمًّا، والصدر مطبقاً همًّا .

جلست في مرتفعي المعتاد ، وكأنَّ أجفاني معقودة بأسلاك متصلة تارة بذلك الكرسي، وتارة بباب الفندق الواسع الذي دلفت الملكة منه أمس .

يا لله ! ما أعجب عجائبك يا ربُّ ، لأول نظرة في ذلك الباب الرحيب ، بدت لي الجلالة تتهادى بثوب أبيض ناصع، لا أدري من أي نسيج هو، لا ديباجة فيه سرى عليها منعقة من البياض أيضاً . بدت كأن الشمس أطلت في كبد السماء من بين الغيوم فقشعت السحب من حولها ، وكأنَّ الجلد كله فيها بياض نهار لا تغشاه لطخة من غمام .

وتقدمت وجلست على كرسيها يسند ظهرها ظهرٌ مخملي المسائل الى الوراء . وشرعت الأحجار النفيسة تتألق في أصابعها وأذنيها وعنقها وتاج شعرها .

وأرسلت أبصارها الهوينا هنا وهناك، تستكشف الجلاس، وتتبين حركات الناس ، وما وقع نظرها في ناحيتي بل تجاوزها . ولماذا تختصني بنظرة بين عشرات الناس ومئاتهم وألوفهم . حقًّا إني لجريرٌ بأن أفكر بصلة بيني وبينها سوى صلة الجوّ يحوينا كما يحوي جميع الناس .

سبحانك اللهم الحاجب أسرار الكون، والمغلق غوامض العالم . ما هي إلاَّ هنيهات حتى تقدَّم إليَّ الساقي (الجرصون) وقال : « تلك السيدة الجالسة وحدها في اليمين تدعوك اليها »

خمنت فيه وقلت : أنت غلطان، ليس إياي من هي تدعو .

قال : « بل أنت هو . لقد أرشدتني اليك بصراحة ووضوح .

— من هي ؟

— لا أعرف عنها شيئاً سوى أنها سائحة عظيمة . ربما كانت أميركية .

— قل لها أن تأتي الى هنا ان كانت في حاجة اليّ .

فتردد الساقي وقال : لا أظن أحداً في الدنيا يجاوب هكذا على رجاء سيدة عظيمة كهذه حتى ولو كان ملكاً . لقد أبلغتك الرسالة وأنت حرٌّ فيما تفعل .

وانثنى الساقي في سبيله ، وتقدمت اليها وانحنيت لديها . فبسطت يدها مرتعشة . فما شعرت إلاّ رأسي ينقض على تلك اليد العاجية وفي يشهب قبلة من سلامية تلك الكف وهي في كفي . وقلت بالانكليزية : إني في خدمتك يا مولاتي إذ كان الساقي لم يخطىء في استدعائي اليك .

فأجابت بالانكليزية الفصحى : لم يخطىء ، إياك دعوت . تفضل اقعد .

وأشارت الى الكرسي المقابل لها والخوان بيننا . فقعدت . وقالت باسمة : لماذا كنت أمس واليوم تحدق فيّ بلا انقطاع ؟

قلت : كيف عرفت أني كنت محدقاً فيك ؟

قالت : رأيتك كذلك

قلت : اذاً كنت تنظرين فيّ بلا انقطاع فلماذا ؟

قالت بابتسامة ساطعة وبخيلاء : تحديقك في ألفت نظري فوددت أن أتبين غايتك .

— حسنٌ . فاذا تبينت من غايتي ؟

— بقيت غايتك سرّاً لي . فلماذا لا ترد نظرك عني .

— عجباً . أما طاف نظرك على جانبيك فرأيت كل الأحداق من حولك تتملقك . فلماذا تخصينني وحدي بهذا السؤال ؟ وهل للشمس أن تقول للسيارات لماذا توجهن أبصاركنّ اليّ ؟

فتبسمت ابتسامة لمعت كوميض برق وقالت : وما شأن الناس بي حتى إذا جلست برهة هنا امتلأ المكان جلاساً .

قلت : لله درك يا سيدتي . وهل يستطيع الجلاّس أن يفلتوا من حبائل هذا البهاء المغنطيسي ؟ هل يقدر السيار أن يخرج من منطقة الجاذبية ؟

فقهقهت قهقهة لطيفة وقالت : أظنك بين السيارات زُحل .

قلت : ما الذي أغظنك هكذا ؟

قالت ضاحكة : لأن أكاليلك النورانية تستهوي الراصدين .

قلت : ليتني كنت عطارداً لكي أكون أقرب السيارات الى الشمس .

قالت : فولكان أقرب ، أفلا تتمنى أن تكونه .

قلت : ألا خوف من الاحتراق في مكان فولكان .

قالت : احترق قرطكان وانتهى أمره وصار جمرة

فتجسرأت وقلت : وأنا قد احترقت وصرت جمرة حب.

قالت : أظنك جمرة حبّ أوشكت تنطفىء

وازددت جرأة وقلت : إذا نفخت فيها نسمة حياة أذكيتها إذ لم تزل فيها بقية من حياة الحب غير قليلة .

قالت : أتتوقع مني نسمة حياة أم دمعة حب؟

قلت : منكِ للنسمة ومني الدمعة .

قالت : وهل عندك دموع ؟

قلت : أليست لي عينان بغدتين دمعيتين

فحملقت فيّ وقالت : أحقيق أن لك عينين تدمعان .

قلت : كيف لا ؟ ألست في موكب العشاق أحمل العَلَم ؟

قالت : إنك مدينٌ لي بعشر دمعات .

فلماذا لا توفيها إذن ؟

فحملقت فيها مندهشاً وقلت : متى كان هذا وأين ؟

قالت ضاحكة : أتنكر الدين هرباً من الوفاء أم أن دمعك فاض، وأن غدده جفت ؟ هل بكيت في حياتك ؟

وكنت أنعم النظر عسى أن أتوسم فيها سحنة كنت أعرفها فغيرها الزمان. وقلت: البكاء ليس شيمة الرجال يا سيدتي .

— إذن تصرُّ على عدم ايفاء الدمعات .

— كلاَّ لا أصر ، وإنما يظهر لي أنك تبغين أن تمنحيني عشر لوعات لكي تتقاضي مني عشر دمعات بدلها .

لا أظلمك يا سيدي، تطبق الآية الذهبية: «كما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوا أنتم بهم هكذا أيضاً».

اشتدت حيرتي بهذه المرأة إذ لم يخطر لي أني رأيت في حياتي امرأة أجنبية تكلمني بالانكليزية الفصحى قبل هذه . فقلت : لعلك يا سيدتي مخطئة . فاعرفيني أنا .

فقهقهت ونطقت بالعربية : لست مخطئة البتة . إني أكلم السيد يوسف العشّاق .

فلما رنت في أذني اللهجة اللبنانية حملقت فيها وتوسمت السحنة القديمة من خلال ذلك البهاء . وقلت : سلمى ؟ .... الزعفراني ؟ أحقيقة أرى أم حلماً .

فقالت : بل حقيقة سلمى ترى ، عقيلة توم ستنفورد ملك الكوتشوك في الولايات المتحدة الأميركية ، صاحب مئتي مصنع للمطاط على اختلاف مصنوعاته .

فأجفلت وقلت . إذن لم يخطىء ظني إني في حضرة ملكة الآن . فمعذرةً ومغفرة لما يمكن أن أكون قد ارتكبت من سوء السلوك .

قالت : لقد تركت عرش المملكة الى حين وجئت الى الشرق لأجل معين. وسنبرح قريباً الى لبنان . أفا أنت ماضٍ الى هناك لصيفية .

— قد أمضي .

عند ذلك أقبلت الفتاة الصغيرة فعرّفتني بها قائلة « سمّ دورا ستنفورد ابنتي » . ثم عرّفتها بي : — « المستر يوسف العنابي صديق قديم » . سيقيني الى السيارة يا عزيزتي

فسألت الفتاة وقلت لسلمى : ألا تعطين هذا الملاك ريثما تتركك به هنيهة ؟

فقالت : أتريد أن تستدرك منها أدمعاً كما استدرت من أبيها ، إنها غصنٌ وطيب . أتستطيع أن تهجره ؟

فقلت هل يمكن العود العلب وهو عند جذع الدوحة أن يقرب من الغصن النضير في أعلاها يا سيدتي . قُطعت اليد قبل أن تهجره ! لو كنتُ فناناً لدنّاً وارفاً لكنت أظلل هذا الغصن النضير بأوراقي لكيلا تلفحه حرارة الشمس . آه . ليت الشباب يعود .

فقالت : ليتك كنت فناناً . هل تنفع ليت ؟

فقلت : لقد انقضى عهد نضارتي عزيزتي وسكن عهد نضارتك طال . فما أغرب سرار هذا القدر . بالله كيف عرفتني وخفيت ني ؟

فضحكت وقالت : عرفتُ كل شيء نك . وأنتَ لاتدري ، إني هبتُ ملاكاً رحاك ويتسقط أخبارك .

فقال : أحقيق أنك عرفت بسقوطي يضاً .

فقالت مثلك لايسقط . إسمع لي الآن ، فإن ابنتي ستتبطني في السيارة ، يجب أن نلتقي في لبنان

* * *

عدت في ذلك المساء الى منزلي الصغير أترنّح من نشوةٍ لم أستطع تفسيرها . هذه امرأة كانت عشيرتي في أيام الصبا ، عشرة جيرة غير قصيرة . كنت أعطف عليها ولم أدر أنها كانت مدلّهة بي إلا حين قضى القدر أن ترحل الى أميركا . لم أدر أنها مدلهة لأن تربية الحشمة في ذلك الجيل وفي ذلك العهد كانت تغلق قلبها على سرّ حبها . ولما فوجئت بالفراق انقضّ ختم ذلك القلب فباحت بذلك الحب .

ذهبتْ الى أميركا فحوّلت البيئة مجرى حياتها . فبدلاً من أن تكون زوجة يوسف العنابي البدّال صارت زوجة توم ستنفورد ملك المطاط الملياري ، تتذوّج وتترف وتبطر أكثر من ملكة . وقد منحها الله بدائع الجمال وروائع الجلال . فما شأني بها وما مطمعي منها ؟ ولماذا تتصابى اليوم وهي ذات بعل عظيم الشأن ؟ ألعلّ الحب الجديد لم يطمس الحب القديم ؟ ولماذا أصبو إليها وأنا متدحرج الى هاوية الهوان ؟

ويعني ان هذه المرأة تنرم فار وجدي من جديد لكي تتلهى بلوعي وتستوفي حقها من دموعي . لعلها تهيج الغرام بي لكي تتمكن من الإنتقام . لا أستطيع أن

أنكر عليها هذا الحق ولا أستطيع أن أمنعه عنها .

آه . ليت الشباب يعود

في الصباح التالي تناولت من البريد رسالة فقضتها فإذا هي مغلوبة من حوالة نبهها بألف جنيه ، وفي كلتين مختصرتين جداً تقول فيهما أنها تقدم هذه القيمة الزهيدة إذ لعلي في حاجة إليها الآن . فلا ينبغي أن أشعر باحتياج . ان اللقاء .

قضيت ترفاً بالحوالة الى الصندق لكي أردها لها فقيل لي أنها ربتها برجعتا الى الأقصر . فبعثت بالحوالة إليها مع كلمة شكر بليغة لفحتها نسمة حب .

وعدت الى منزلي شاعراً بتوهك فجلست الى سريري على نية أن أتجنب في اليوم التالي حضور المزاد المؤلم في متجري حيث يتناهب التجار بضاعتي استيفاء لديونهم .

* * *

في اليوم التالي ما إن ارتفعت الشمس عن رأد الضحى حتى دخلت على مخدومي سعاد بنت صديق الكروي الكبرى وهي في نحو الثالثة عشرة من العمر وارتمت على سريري عند قدمي باكية بكاء مراً . فأجفلت وقلت : ماذا بك يا سعاد ؟ هل من خدمة لكم فأقضيها إن كنت أستطيعها ؟

قالت وهي لا تزال تشهق : نعم يا سيدي يوسف . تقبلني خادمة عندك من غير أجر .

فلت : لا تسلحين خادمة يا بنيتي . وعندي حسن البربري كافٍ لخدمتي . وقد لا أحتاج له لأني شاعر بتقدم مرض يقتضي مضيّ الى المستشفى .

قالت : لقد وقفت نفسي أمة لك مدة حياتي ، سواء في المستشفى أو بعد عودتك منه . لأني لم أعد أطيق الإقامة في بيت كنت فيه كريماً فخرجت منه مكلوم النفس . ولم أرَ ملجأ لي إلا العبودية لك . لم تغمض لي عين منذ فهمت جيداً ما كان من أمر ذويّ لك . فرحماك لا تصدّني .

فقلت : سمعاً يا بنيتي سعاد . لم أبقَ أنا ذلك الانسان الذي تعهدينه كريماً . لقد علمني صديقي النيلسوف أمس أن الإنسان حيوان ضار . فأنا اليوم ذئب أو أفعوان . فلا تقربي اليّ .

فقالت : لا تستطيع يا سيدي أن تغير طبعك الكريم لأن معلمتي علمتني أمس أن من شبّ على خلق شاب عليه .

فقلت : أنت الآن ملاك طاهر ، وما أنا بقديس ، فلا تجربي شهواتي الحيوانية . عودي الى أهلك . وقد غفرت لأخيك وخالك منذ كنت كريماً قبل أن صرت حيواناً ضارياً .

قالت : لن أعود الى الجحيم لأن الذئب والأفعوان اللذين تدعيهما صيراني ملاكيّ رحمة بي . لقد أخذت من محفظة خالي وهو نائم هذه الورقة بمائة جنيه لكي

أوفي بها بعض ما لك علينا من الفضل .

فصحت بها : ويحك أمال خانت تسرقني ؟

فقالت كلا . بل هذا بعض مالك فخذه واجعلني أنا بعض مالك الآخر .

فقلت : عني يا فتاة . ردي الورقة لخالك عودي حالاً . والجئي الى دير اذا شئت الهرب من جهنم .

ونهضت من سريري وقذفت بها وبورقتها معها من الباب .

وما هي إلا بعض الساعة حتى دخلت عليَّ عبلة أم سعاد وارتمت عند قدميَّ ناحبة

فقلت : لماذا جئتني يا امرأة ؟

قالت : جئت لكي تلطفني بعملك لطهارة متوالية الى أن تقضي عليَّ . فقد كنتُ من أسباب آلامك .

قلت : أتريدين مني أن أسامح نسيباً ابنك، وان أتوسل الى القضاء ان يعفو عنه فقد سامحته حين أساء . وأما القضاء فلا يقبل شفاعة .

فقالت وهي لا تزال تجهش : إن تقتي العظمى بطيبة قلبك أرسلتني اليك لكي أرجو منك ان تتدارك سقوط سعاد في يد القضاء برد ورقة المسابة جنيه التي أخذتها من محفظة خالها وقدمتها لك ، وهي كانت تظن أن خالها يتسامح ويغضّ النظر عنها فاذ هو يهددها باستدعاء الشرطي . فبربك تكرم بالورقة وخذ بدلها سعاد خادمة لك .

فقلت : لقد رفضت سعاد وورقتها وطردتها من منزلي الذي أصبح مريض وحش ضاري . فعودي يا سيدتي مطمئنة على مال أخيك وعرض بنتك . إني مريض الآن وربما صار مصيري غداً الى المستشفى ولعله الى قضاء الله .

ومضت المرأة آسفةً شاكرة داعية .

الفصل الثامن

الملاك الحارس

نمت غير واعٍ بما تقلب عليه وثير الفراش ، إن على أشواك الغم . وقد أطبقت على صدري سوداء الهم من الجانبين الى أن صدتها سنة الكرى فنمت غراراً . ولا أدري متى صحوت ، فيما أنا أردد بيتاً من الشعر إعجاباً به نظمته في حالي ، فرمت ان أكتبه لئلا أنساه .

الى يميني سريري مكتب صغير عليه ورق وأقلام . فتناولت الورق وقلم الرصاص وجرت أصابعي بالقلم على الورق من غير أن أرى شيئاً وكتبت بيت الشعر في الظلام معتمداً على ارشاد اليد . وعدت استلقي على الفراش ورغبت أن أكرر بيت الشعر فاذا بي قد نسيته . عجباً . كيف أنساه ؟ إذاً فعلت حسناً إذ كتبته ، وإلا ضاع في عالم الخيال الفسيح فكأني ما نظمته . اعني لم أكتب بل توهمت أني كتبت . فمددت يدي الى الزر الكهربائي المتصل بالسرير وضغطته ، فضاء المصباح . وما أغرب ما رأت فيما كتبت .

« ألا ليت الشباب يعود يوماً

لأجزه بما فعل المشيب »

فضحكت على نفسي وقهقهت حتى كدت أظن ان في جيرتي من سمعني فستجنني .

لعلّ هم بيت الوهم ضحك على ذقني في غمرة قصيدة ، إذ جنس من عالم الشعر بيتاً قديماً مشهوراً سمعته ، ونسيته في غيبتي ، وأوهمني أنه من بنات أفكاري . لئلا نه من مداعب صحيح .

لله من اضغاث الأحلام ما أتقلبا في فلاقل المنام .

ثم ضغطت الزر الكهربائي لكي أطفىء المصباح . ولكن الضوء لم يخبُ بتاتاً بل تضاءل حتى صار كأنه نور جمر في وطيس . وأجلت نظري في الغرفة لكي أتبيّن مصدر الضوء الضعيف الذي بقي بعد اطفاء النور الكهربائي . فبدا لي على الحائط أمامي ظل جسم انساني مطموس . فجزعت . ولكن أين الجسم المُظِلّ ؟

تلفت هنا وهناك فلم أر شيئاً . ثم عاد نظري الى الظل فاذا به طيف يتضح ويبدأ حتى صار جسماً . فاقشعرّ بدني ووجف قلبي . ماذا عسى أن يكون هذا ؟

ثم تقدم هذا الطيف حتى توسّط الحجرة وظهر على كتفه جناحان ونراءى لي روحاً ملائكيّ متجسماً ، فهدأ روعي قليلاً إذ شعرت أنه روح خير . وثبتُّ صامتاً أنظر فيه وأتبيّن خلقته الجلية الى أن قال :

هل أنت لي ؟

قلت : من تكون ؟

قال : أنا ملاكك الحارس لك . ألا تعلم أن لكل انسان ملاكاً يحرسه ، فان كان الانسان صالحاً كان ملاكه ملاك خير ، وإلاّ

فلاك شر .

فقلت متنهداً : وهل تراني صالحاً أستحق الخير وقد تراكمت عليَّ الغموم الجهنمية ، وأوشكت أن أنتحر ؟

— لماذا تنتحر ؟

— ألا ينتحر من خاب في مطامح الحياة ، وضلَّ في مسالكها ؟ لعلَّ الله ناقم عليَّ . أكاد أندفع الى منيتي .

قال : إذن لماذا كنت تردد في أيام الآس « ليت الشباب يعود » ؟ كأنك تريد استئناف الحياة ثانية . فقد رقَّ الباري الرؤوف لك ، فأوفدني اليك . فهل تريد استئناف الحياة ثانية حقيقة ؟

قلت : حقاً لربي . لعم كنت أتمنى استئناف الحياة من جديد ، لكي أصلح أغلاطي الماضية التي ساقتني الى الثبور الذي أنا فيه الآن ، عسى أن أعيش عيشة أخرى راضية سعيدة . ولكنني يئست من هناءة هذا العالم لأني أراه مفعماً بالشرور والمحن ، وقد أصبحت حياتي كلها جحيماً فيه فصرت أود هجرانه .

قال : الجحيم على الأرض ليس أبدياً فاما أنك تهلك فيه محترقاً ، أو أن تتمحص فيه فتخرج منه طاهراً نقياً .

قلت : أجل . اني هالك لا محالة . أمسي مأتي الأخير وأنا في حالة افلاس مجرد لي من كل متاع إلا الشرف . فقد قال القاضي الذي نظر في قضية افلاسي انه لم يرَ في تاريخ القضاء نفيسة شريفة كنفيستي على أن هذا الشرف الذي يكسوني لا يستر عاري عن عيون الناس . غداً يباع متجري بالمزاد العمومي ولا أرى شيئاً لي من غارة هذا المزاد آمن من مخالب الانتحار

قال : إنك في الطرف الأقصى من الشباب ولم تتخط آل الكهولة بعد . وما زلت في عنفوان الجسم السليم وصحة العقل الناضج أمامك نصف العمر — أطاله الله لك — فتستطيع أن تظفر بمستقبل سعيد مجيد . ولا بد أن يكافئك الله على فضائلك .

قلت : أرى المستقبل كالسراب يغشي سراعاً عني لا إليَّ . فلا أظنني أستطيع لحاقه والظفر به .

قال : لا تقنط من رحمة الله يا عزيزي ما دمت رجلاً صالحاً

قلت : إن صلاحي هذا الذي تنوِّه به ياسيدي هو الذي اجتذب محنتي إليَّ كما يجتذب العسل الذباب الخبيث . والا فلعله صلاح أنت وأنا محدودان به ، أو انه ليس العلاج اللازم لهذا العالم . والأرجح أن لهذا العالم صلاحاً غير الصلاح الذي رضعتنيه أمي وغير الذي طبعه أبي في نفسي بقدوته ، فليتني أهرد غلاماً فأجدد سيرتي بالنمط الأصلح لهذا العالم — ولكن ...

« ليت وهل تنفع شيئاً ليت
ليت شباباً بوع[1] فاشتريت

(١) كذا ورد في الشعر والصواب « بيع »

قال : ان « ليتك » لنافعة يا عزيزي . ولا مستحيل عند الله القادر الذي يستطيع أن يجعل الماضي مستقبلاً ، ثم أنت الآن فتى يانع جدد حياتك واصلح أغلاطك وعش عيشةً راضية جزاء صلاحك .

فاضطربت ووثبت في الحال مذعوراً ونظرت في المرآة ودهشت إذ رأيت طيفي فيها طيف فتى ، لا طيف رجل على باب الكهولة كما عهدتُني . لا شارباه ، ولا عارضاه ، ولا بدن ضخم ، ولا شعرة بيضاء في رأسي ولا خشونة في إهابي ، بل رأيت طيف فتىً لم يخضرّ عارضاه بعد ، ولا كثف شارباه . أسيل الخدين ، وضّاء المقلتين ، ساطع المحيا ، مُشرق الثغر ، مخيف القامة لطيف الروح . ارتددت جازعاً .

قال : أليس هذا ما سألته ؟

فقلت : في لأي متردداً : — بلى

قال : إن الله سبحانه وتعالى استجاب سؤلك ، فهل ندمت ؟

قلت : ولا أزال مبهوتاً : كلاّ . . . ولكن . . .

قال : ماذا ؟

فلبثت بعد صمت دقيقة : هل أجد أبي وأمي عادا الى قيد الحياة ، كما كانا معي في حداثتي ؟

قال : أنت طلبت الشباب لنفسك ، لا عودة أبويك من عالم الأبدية اليك . هل تبتغي أن يعود كل ذلك الزمن الغابر بأشيائه وناسه وأحداثه كما كان حين كنت يافعاً ؟ أو هل تريد أن ترجع عاتقة القرن التاسع عشر بصليبها ونيابيها وشموسها وأقمارها ووقائعها ؟ أم تريد ان يجعل القادر على كل شيء كل ماضي الكون العظيم مستقبلاً لأجل خاطرك ؟ أم هل تريد أن يرجع الله عقرب ساعة الكون الى الوراء ربع قرن ؟ أو أن يمحو الله صفحة من صفحات سفر الأدهار ، أو أن يطويها لكيلا تنشر بتاتاً ؟ أو أن ينزع تلك الصفحة منه لأجل « ليتك » ؟ أين تريد أن يلقي تلك الصفحة ؟ أفي جيب الفضاء السحيق العميق ؟ أم في رحاب العدم اللامتناهي ، أم تريد أن يخلط « ورق » الكون في مندمج « الزمكان » أي (الزمان المكان) لأجل سواد عينيك ونعومة خديك

فقلت مقاطعاً صارعاً : مهلاً يا سيدي حلماً يا ملاكي الحارس . لا أريد غير ما يريد الله . فلتكن مشيئته تعالى . وإنما أراني أستقبل الصباح ، ولست أنا ذلك الرجل الذي يعرفه بعض الناس ، بل أنا ولدٌ مجهول . ولم يرني أحد بعد ، فلا يعرفني أحد حتى ولا من كان يعرفني . فكأني جئت من عالم الغيب . كيف أخرج من خدعي وكأني أصبح يسعني مرتين ، أو يسع شخصين مثلي .

قال : متى لبسته ثوبه قد تقمص مثلك لكي يسعك مرة واحدة .

ملكت حيرتي على ذهني . وبعد هنيهة قلت : — اني أراني كالطفل غريب في

العالم ، لا أدري كيف أتدبّر . ان العبد المعتوق من سيده أسلح للحياة مني .

قال : لماذا ؟ معك عمر ١٧ سنة بجميع مؤهلاتها التي كانت لك في ذلك العمر وأكثر منها . ومعك فوق ذلك اختبار ربع قرن ، واذا شئت فمعك معونة الله . أما كفاك كل ذلك عدة للجهاد في مضمار الحياة ؟ من في سنك له مثل مالك ، هل تنقصك شجاعة ؟ أعطيكها ، ابتدىء في الحياة كفتى صحيح الجسم والعقل والضمير ، وحاذر أن تحيد عن الصراط المستقيم . وحاذر أن تخدع كما خدعت . تنبهك لمكايد الناس لا ينقص فضيلتك . احذر أن تدع أحداً يعرف لك ماضياً غير ماضي الصبوة ، وحياة قبل حياتك الجديدة وإلاّ فزوال عنك هذه النعمة . اطلبني عند الضرورة القصوى تجدني . قل في ضميرك : يا ملاكي كالاثيل ، إني في حاجة الى نصيحة منك . فألبيك سلام الله عليك .

قلت : مهلاً لي سؤال خطير الشأن . كيف أستطيع أن أتحايد شرور الأشرار وأنا دائماً أفرض أن جميع الناس أخيار قبل أن أختبرهم .

قال : بل يجب أن تفرض أن الناس كلهم أشرار ، وعليك أن تختبرهم لكي تكتشف خيارهم . لا تعاملهم كأشرار ، وإلاّ أسأت إلى أفاضلهم . عاملهم كلهم كأفاضل وحاذر منهم كلهم كأشرار . لا تستسلم قبل أن تتحقق وتتأكد أن لا احتيال عليك . كن مستيقظاً يقظاً . ولكن طيب القلب ، لا سذاجة . وإلاّ صبح الأشرار في ستغلال سذاجتك .

قلت : سمعاً يا سيدي الملاك ان ما اكتشفته مما اختبرته في هذا العالم هو أن لا سبيل الى النجاح والسعادة فيه إلاّ بالحيلة والخداع والنفاق لاختلاس حقوق الغير . وأراني لا أستطيع أن أحيد عن ماضي الماضية إلاّ بانتهاج هذا النهج ، وإلاّ عدت الى ارتكابها ثانية . لا أرى الفاضلين في الحياة إلاّ أشراراً . ولا أرى الأفضل إلاّ مخفقين . فدعني أخرج من هذا العالم الذي لا أريد أن أعيش فيه غالباً .

قال : لك ما تشاء . فاخرج منه إن كنت لا تريده شاباً جديداً . والسلام عليك

ولم يمهلني ملاكي لسؤال آخر بل تلاشى ظله وريداً . وفي دقيقة امّحى تماماً . وساد الظلام في غدفي .

* * *

تراجعت حتى اصطدمت بالسرير فاستلقيت عليه ذاهلاً مخبولاً . أحلماً كان هذا أم حقيقة واقعية . أطيف هذا بي مخيلتي هزأ بي : هذا حادث خارق للطبيعة فلا يمكن أن يكون حقيقة . ما هو إلاّ وهم ، هو حلم

ألم أزل أنا في حلم أم في يقظة الآن . فاذا طرأ على عقلي حتى خُيّل لي هذا الوهم ؟

ضغطت زر الكهرباء . ضاء المصباح فإذا بي أرى نفسي غير ما كنت أعهد .

لمست خدّي وسائر وجهي، فإذا هو أملس تام لا عذار فيه ولا عارض

وجفت . خفت . خفق قلبي بين ضلوعي، وتهيبت أن أقف تجاه المرآة مرة ثانية وأخيراً ؟ الى متى الخوف والتردد ؟

تشجعت ونزلت من السرير وتقدمت متردداً الى المرآة . جزعت إذ رأيتني غلاماً كما أراني ذلك الشبح نفسي . أرى بعيني رأسي حقيقة لا وهماً . أحقيق أن ذلك الملاك فعل بي كما قال ؟ ويحي ! أيمكن هذا ؟ اختلط الأمر في عقلي ؟ فحصت محتويات الغرفة فاذا هي كما أعهدها لم يتغير فيها شيء إلا أنا .

وكلما حدقت في خيالي في المرآة تذكرت حوادث صباي التي كنت أنساها على مرور الزمن . تذكرتها حينئذٍ كأني مازلت غلاماً . وكأني أنا الآن في ذلك الحين . إذاً لم يمزح الطيف ... الملاك .

ولكني لا أزال أذكر أمسي وأمس أمسي وتجربي وقضية إفلاسي « وانتظار الدلالة » على بضاعتي غداً ، وأصحابي ومعارفي وعلائقي معهم . فهل أصبحت شخصين ؟ يوسف العنابي الكهل ويوسف العنابي الغلام ؟ ضربت الحيرة في رأسي . صهرت دماغي . مزجت مخاخي بدمي . أدهمت صباي بكهولتي . يستحيل أن أكون اثنين . أنا واحد . ولكنني كنت أمس رجلاً على باب الكهولة . وفي هذا الصباح أنا غلام مراهق .

عجباً ! أينمو الانسان الى تحت ؟ أيتقدم إلى الوراء . أيرجع المستقبل الى الماضي ، أم يأتي الماضي بعد المستقبل ؟

أكاد أجن . . . تتضاءل . . . بعد الحيرة

***

تقدمت الى الشباك . فتحته . نظرت في الفضاء . فاذا الفجر يشق حلك الأفق . ويلاه . ماذا أفعل ؟ كيف أخرج الى الناس وأنا غلام صغير والناس يعرفونني رجلاً كبيراً .

الصبح يدنو . يجب أن أفكر فيما أفعل . فتحت خزانتي . أخذت محفظتي . فتحتها فاذا فيها ورق الصفة الذي كنت أعهده فيها . إذن فأخرج قبل أن يظهر أحد في سلم البناية . ومتى صرت في الشارع فلا أحد يشتبه بي ، لأني أكون كأي واحد من الغلمان الذين في سني . ثم أمضي ثم يفتقدون يوسف العنابي فلا يجدونه . يبحثون عنه فلا يعثرون عليه بتاتاً يزعمون انه انتحر بسبب افلاسه طرح نفسه في النيل أو هام في الصحراء .

وضعت في حقيبتي (شنطتي) ما أحتاج اليه . وخرجت قبل أن يتضح الصباح . قررت أن أبرح الى الاسكندرية حيث لا يعرفني أحد . فذهبت توّاً الى المحطة فركبت القطار الى الاسكندرية .

نزلت في فندق متوسط الحال . وقبل أن أتلمظ الفطور جعلت أفكر فيما أفعل ؟